A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.71
A158YsuA

جميل سلطان

دكتور في الآداب

عضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريز

أبو تمام

Cat. aug. 1950

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٦٩ - ١٩٥٠

69420

بسم الله الرحمن الرحيم

أللهمَّ حبِّبْ إلينا الحقَّ حتى يكونَ الشُغْلَ والهوى ؛ وزيِّنْ أخلاقَنا بالصدق حتى يكونَ الغايةَ والمُنى ؛ وجَنِّبْنا الضلالةَ فلا نَذِلّ بها ولا نخزى ؛ واعصِمْنا من الجهالة فلا نَضِلّ بها ولا نَردى .

اللهمَّ زكِّ نفوسَنا فأنتَ خيرُ مَنْ زكّاها ؛ وألْهِمْها رُشدَها فأنت وليُّها ومولاها ؛ وافتح بصائرَنا على أنوار مشكاتك ؛ وسَدِّدْ خُطانا في سبيل مَرضاتِك ؛ حتى لا نرى إلاَّ الحقَّ ؛ ولا نلتزم إلاَّ الصدْق .

ونعوذُ بكَ اللهمَّ أنْ ندعي العصمةَ من زَلَل ، في ما تفعل ؛ أوْ البراءةَ من خطل ، في ما تقول ؛ فأنت أعلمُ بنا منّا ؛ وأعرفُ بما أعلنّا وما أسررْنا ، وما قدَّمْنا وما أخَّرْنا ، وما ابتغيْنا من خيرٍ شاملٍ بين يديك ، وما رجونا من فضلٍ كاملٍ لديك .

فتولَّ اللهمَّ بالمغفرة أسواءنا ؛ وبالإحسان أخطاءنا ؛ وتقبَّلْ صنيعنا بما تحب وترضى ، إنك أنت العزيز الحكيم .

دمشق : ١٢ ربيع الأول ١٣٦٩
١ كانون الثاني ١٩٥٠

ابو تمام

١ – الرجل

قصة حياته ، نشأته ، أخباره ، رحلاته ، آخر المطاف ، صفاته وأخلاقه ، لهوه ، دينه ، مذهبه السياسي ، اسرته : ٦ – ١٧

٢ – الشاعر

مكانته الأدبية ، ثقته بنفسه ، ثقافته ، اختراعه للمعاني : ١٨ – ٢٤

الصنعة في الأدب : ٢٥ – ٢٨ ؛ أساتذته ، عصره وموقعه من بقية الشعراء : ٢٨ – ٣١

فن أبي تمام : المقابلة والطباق ، التدبيج ، التجسيم والتشخيص ، الغموض والتأويل ، الجناس ، المجازات والكنايات ، آثار الثقافة الواسعة ، نواح متعددة من فنه : ٣٢ – ٥٣

آفاق عبقريته : المديح ، الرثاء ، الوصف ، الحكمة ، الفخر ، الغزل ، الهجاء والعتاب ، الرجعة الى الله تعالى : ٥٤ – ٧٤

قواعده في النظم ، محاسبته بمقياسه : ٧٥ – ٨٠

آراء الادباء فيه : ٨١ – ٨٤ ؛ استاذيته ، الموازنة بينه وبين البحتري ، والمتنبي : ٨٥ – ٨٩

اغارة الأدباء على شعره : ٩٠ – ٩٦ ؛ اغارته على الشعراء : ٩٧ – ١٠٢ ؛ مغائب شعره ١٠٣ – ١١٢ ، ديوانه وحماسته : ١١٣ – ١١٥

أبو تمام في سطور

طائي من جاسم ، عاش فى دمشق ومصر، وطوّف فى البلاد الإسلامية، ومات فى الموصل .

واسع الثقافة ، نافذ الذكاء ، رفيع المكانة ، جم البر ، كثير الحساد .

له أوفر نصيب من الصنعة كالمقابلة والتجنيس والاستعارة وتجسيم المعاني وتشخيصها .

قد تغمض معانيه ويغرب ، فيخرج عن مألوف العرب ، وعما ينصح به أن يلتزم .

مجودّ لا ريب في عبقريته ، رغم كثرة ما سقط فيه .

فتح للشعراء سبلاً للمعاني والصنعة فانتفعوا بها كما انتفع من سواه .

هو في المقدمة من شعرائنا الخالدين .

حبيب بن أوس

قصة حياته :

من مآثر طيء في الجاهلية والإسلام ثلاثة رجال : كل واحد منهم عبقري خالد في ناحيته : حاتم في كرمه ، وداود بن نصير في زهده ، وأبو تمام في شعره ؛ ولكن طائفة من المتحدثين عن الشاعر لا يريدون أن تصح نسبته إلى طيء ، فتكون عربية خالصة ، وانما يذكرون أنه ينتمي إلى أصل رومي ، وأن أباه « أوساً » كان في أصله (تدوس) أو (تيودوس) وهو نصراني من أهل جاسم : قرية من قرى حوران تابعة لدمشق ، بينهما ثمانية فراسخ ، وأن (تيودوس) هذا كان عطاراً ، أو خماراً ، وأنه قد لفقت للشاعر نسبة إلى طيء ، ليس فيمن ذكر فيها من اسمه مسعود . وهذا باطل ممن عمله ، ولو كان نسبه صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بعشرة أباء (١) . وقالوا إن بيت أبي تمام :

إن كان مسعود سقى أطلا لهم سيلَ الشؤون فلستُ من مسعود

لا يدل على كونه من مسعود ، وهو أحد الأجداد الستة الذين لم يُذكروا في النسب ؛ ذلك ما قالوا .

على أنا نرى في قوله « فلست من مسعود » دليلاً على أنه منه كما تقول « إن كان جدي فعل هذا فلست منه » وأنت في الواقع تنتسب إليه ؛

ولعل لهذا الاضطراب في النسبة سبباً يفسره كثرة حساد الشاعر ،

(١) ابن خلكان : ١/١٥٠ .

وما كان له من مرتبة لم تكن لسواه ، وقد بدىء بالطعن فى صحة نسبه من أيامه ، فهجاه بعضهم حياً وميتاً كمخلد بن بكار الموصلى فى قوله :

أنت عندي عربي الـ أصل ما فيك كلامُ
أنا ماذنبيَ إن خا لفني فيـك الأنـام
وأتت منك سجـايا نبَطيـات لئـامُ

وقال فيه :

ويلَك مَنْ دلاّكَ في نسبةٍ قلبُك منها الدهرَ مذعورُ
لو ذُكرت طاءٌ عَلَى فرسخٍ أظلمَ في ناظرك النورُ

وقال آخر فيه وسماه حبيب بن أوشونا :

اذكرْ حبيبَ بنَ أوشونا ودعوتَه
فإن طيًّا إذا سُبُّوا به جزِعوا
مِرباعُ قومِكَ ناقوسٌ وشَمْعَلة
فاذكر مرابعهم فيها إذا ارتبعوا

فجاء بنسبة يهودية جديدة للشاعر ، لأن الشمعلة تكون لليهود حين يجتمعون ويقرؤون ويصلون ؛ ودعاه بعضهم (أبا ناقص) بدلاً من أبي تمام فقال (١) :

قد جاءني والمقـال مختلف شعر أبي ناقص عَلَى بُعُدهْ
فكان كالسهم صاف عن سدَد القو ل وعن قصده وعن أمده

(١) أخبار الصولي : ٢٤٧

أمام هذا الاضطراب والحقد نرى أن نلتفت إلى شعر أبي تمام لنجد فيه نسبه صريحاً ، فهو يتمدح بالعروبة والإسلام وخصالهما ، ولا يخفي شماتته باندحار الشرك وإذلال الروم ، ولو كان فى نفسه شيء يريب لما أكثر من هذه المعاني المسلمة العربية ، ونظرة بريئة في قصيدته عن عمورية ومدح المعتصم ، تقفنا على جلية عروبته وإسلامه كقوله :

أبقيْتَ جَدّ بني الإسلام في صُعُدٍ
والمشركين ودارَ الشركِ في صبَبِ

. . .

ولا الخدودُ وقد أُدمين من خجل
أشهى إلى ناظري من خدها التربِ

. . .

أبقتْ بني الأصفر الممراضِ كاسمهم
صُفرَ الوجوه وجَلَّتْ أوجهُ العربِ

يضاف إلى هذا أن فى المحققين الأولين من أثبت عروبتـــه فقال أبو بكر الصولى إنه « حبيب بن أوس الطائي صليبة » أي خالص النسب إلى طيء .

نشأته :

ولد حبيب، على ماقال هو عن نفسه ، سنة ١٩٠ هـ (١) في جاسم، ولكن نشأته كانت في مصر إذ حمله أبوه إليها على فقر وخصاصة ، وترعرع في مجالس العلم والأدب من المساجد ، وهي يومئذ موئل العلماء ومبعث فضلهم ، وسقى الماء بالجامع صغيراً ، وخدم حائكا هناك كما فعل من قبل في دمشق ، ولكن ذكاءه وعبقريته أبتا عليه إلا أن يجول في مراتع الشعر والعلم ، وما هي إلا سنوات ضناك خمس يقضيها على تلك الحال من الطلب حتى يصبح شاعراً مهارشاً ، معتداً بنفسه يهاجم شاعراً مصرياً هو يوسف السراج ويهجوه ، ولا يفتر عن مجالسة أهل العلم والأدب ، حتى شهر أمره ، وعرف عند الولاة والأمراء ، ونال جوائزهم ، وأحلوه المراتب العالية ، وإذا هو يرتحل في المملكة الإسلامية مابين مشرقها ومغربها : يفد على المأمون مادحاً مكرماً ، ويستدعيه المعتصم مجلاً لقدره ، مقدراً لنبوغه ، وهو حيناً في مكة يحج البيت ، وطوراً في خراسان يمدح عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وآناً في أرمينية عند خالد بن يزيد أو في الجبل عند محمد بن الهيثم ، ويزور نيسابور والموصل ، فهو أبداً أليف الأسفار ، مغرم بالرحلات ، مقدم عند العظماء ، يوسعونه إكراماً ، ويجودهم بفيض إلهامه ، حتى إذا أراد أن يصور نفسه لم يجد أبلغ من قوله :

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا

بالرقمتين ، وبالفسطاط إخواني

---

(١) نرجح أن تكون ولادته سنة ١٧٦ هـ لأنه مدح الحسن بن سهل بقصيدة صرح فيها أن عمره ٢٦ سنة ، والحسن كان وزيراً سنة ٢٠٢ (٢٠٢-٢٦=١٧٦) على أن ابنه روى أن أباه ولد سنة ١٨٨ (الصولي ٢٧٣)

وله فى هذه الرحلات أخبار كثيرة وشؤون مختلفة تدل على عظيم مكانته فى العلم والشعر والحياة .

شيء من أخباره :

من ذلك أنه كان فى مجلس الأمير أبي سعيد الطائي فدخل عليه البحتري وهو شاب فمدحه ، فادّعى أبو تمام أن القصيدة له وأعاد معظمها ، ونسب للبحتري سرقتها ، فخزي البحترى وخرج ، ولكن أبا تمام استدعاه وقال له : « الشعر لك يا بني ... ولكن ظننت أنك تهاونت بموضعى وأردت مكاثرتي ، حتى عرفني الأمير نسبك ، ولَوددت ألاّ تلد طائية إلا مثلك » وفى هذه القصة دلالة على شهرته وذكائه ؛ وقيل عنه فى مورد الذكاء أنه كان يجيب المتكلم قبل انقضاء كلامه ، كأنه كان يعلم ما سيقول فيبادر بالجواب .

مدح الوزيرَ محمدَ بن عبد الزيات بقصيدة منها :

دِيمةٌ سمحة القيـاد سكوبُ مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ
لو سَعَتْ بقعةٌ لإعظام أُخرى لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

فقال له الوزير : « يا أبا تمام انك لتحلّي شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معانيك ، ما يزيد حسناً على بهي الجواهر فى أجياد الكواعب ، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك فى الموازاة » وكان بحضرته فيلسوف فقال : « إن هذا الفتى يموت شاباً » فقيل له « ومن أين حكمت عليه بذلك؟ » فقال: «رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف غمده »

ومدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السينية وفيها يقول له :

أبليتَ هذا المجدَ أبعد غايةٍ فيه، وأكرمَ شيمةٍ ونحاس[1]

إقدامَ عمرو، في سماحة حاتم في حلم أحنفَ، في ذكاء إياس

وكان الفيلسوف العربي أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندي حاضراً فقال للشاعر: «الأمير فوق من وصفت» فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال مرتجلاً:

لا تُنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وأُخذت القصيدة من يده فلم يجدوا فيها هذين البيتين، فعجبوا من سرعة فطنته، ولما خرج مكرماً قال أبو يوسف الكندي: «هذا الفتى يموت قريباً» وكذلك كان.

نتائج هذه الرحلات:

كان لرحلاته ضربان من النتائج أحدهما يتعلق بنفسه والآخر يتعلق بغيره: أما النتائج المتعلقة به فتظهر في أن أبا تمام أصبح شاعراً مسلماً عربياً لا يصطبغ بصبغ اقليمي، فلا يقال عنه أنه شآمي الطريقة أو المنزع فقط، ولا أنه مصري الثقافة والمعرفة، ولا عراقي الأسلوب والصوغ، ولا هو بيّن الميل؛ وإنما جمع من كل شيء خصائصه، فكان من مجموع ذلك طاقة من الزهر هي هذه العبقرية الطائية. ولقد صهرت الرحلات تلك الآثار

(١) النحاس: مثلثه الأول: الطبيعة، والأصل. وعمرو بن معدي كرب الفارس المشهور. وإياس بن معاوية قاض شديد الذكاء. والأحنف سيد العرب ومضرب المثل في الحلم. وحاتم الجواد المشهور.

فى بوتقة نفسه فظهرت فى عواطفه واحساسه ، فصقلت شعوره وعقله ، وأتمت التجارب معرفته بأخلاق الناس ، وعلمته حسن المعاشرة والمصاحبة ، والصبر على الألسن الحادة ، وكان من جماعها أخلاقه الكسبية .

أما النتائج المتعلقة بغيره من هذه الرحلات فكانت فى إكثار الحساد ، وفى الطعن عليه من العلماء والشعراء ، وحتى من بعض الأعراب المرتزقة بالرواية والشعر ؛ وليس غريباً أن يكثر هؤلاء ، وقد أخملهم وسدّ عليهم منافذ الرزق ، وحيثما وجد امتنع الخير عنهم فأصبحوا يخشون نزوله ان سمعوا به قريباً ؛ فكانوا يبدأون بالهجوم فيهجون ، ولكنه كان يترفع عن الإجابة فى أغلب الأحيان ، فلا يجيب هاجياً ، إذ لا يراه كفؤا ولا نظيراً فهو لا يشتغل به .

قيل له مرة عن شاعر هجاه « ويحك قد فضحنا هذا بهجائك فأجبه » فقال : « إن جوابى يرفع منه ، وأستدرّ به سبّه ، وإذا أمسكتُ عنه سكتتْ شقشقته ، وما فيّ فضل مع هذا عن مدح من اجتديه » .

وعزم أبو تمام مرة على الانحدار إلى البصرة والاهواز لمدح من بهما فبلغ ذلك عبد الصمد بن المعذّل فكتب إليه هاجياً :

أنت بين اثنتين تغدو مع النا س وكلتاهما بوجه مُذال
لستَ تنفكُّ طالباً لوصال من حبيب ، أو طالباً لنوال
أيُّ ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال ؟

فلما قرأ الشعر قال « شغل هذا ما يليه ، فلا أرَبَ لنا فيه . » وأضرب عن عزمه

فتجرُّد أبى تمام عن الصبغة الاقليمية ، وخبرته بالناس ، وحسن معاشرته ، وترفعه ، وإخمال الشعراء المتكسبين ، كانت بعض ثمار تلك الرحلات .

آخر المطاف :

وانتهى المطاف بأبي تمام إلى مدينة الحسن بن وهب ، وكان مقدماً وجيهاً وكاتباً شاعراً ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها أقل من سنتين . ثم توفي فيها سنة ٢٣١ هـ . وبنى عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة بقيت إلى ما بعد القرن السابع الهجرى ، وكانت خارج باب الميدان على حافة الخندق وكانت العامة تقول : « هذا قبر تمام الشاعر » .

وقد رأى القبر والقبة ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ . وكان قد مر بهما الشاعر الدمشقي محمد بن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . فذكر الموصل في قصيدة مدح بها الملك المعظم شرف الدين عيسى بن محمد العادل بن أيوب المتوفى سنة ٦٢٤ هـ . وفيها يقول :

سقى الله دَوْح الغوطتين ولا ارتوتْ
من الموصل الجدباء الا قبورُها

ولما سئل عن تخصيصه قبورَ الموصل بالسقيا قال : « لأجل أبي تمام »(١)

وقد رثاه الوزراء والكتاب والشعراء ، ومنهم وزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات إذ قال :

نبأٌ أتى من أعظم الأنباء
لمّا ألمَّ مقلقل الاحشاء

قالوا : حبيبٌ قد ثوى ، فأجبتهم
ناشدتُكم لا تجعلوه الطائي

(١) ابن خلكان : ١/١٥٣

وقال فيه الحسن بن وهب :

سقى بالموصل القبرَ الغريبا سحائبُ ينتحبن له نحيبا
فإن تراب ذاك القبر يحوي حبيباً كان يدعى لي حبيبا

ورثاه الشاعر الحمصي ديك الجن بقوله :

فُجِع القريضُ بخاتم الشعراء وغديرِ روضتها حبيب الطائي
ماتا معاً فتجاورا في حفرة وكذاكَ كانا قبلُ في الأحياء

وقال علي بن الجهم يرثيه :

غاضت بدائعُ فطنة الأوهامِ
وعدت عليها نكبة الأيام
وغدا القريض ضئيلَ شخصٍ باكياً
يشكو رزيتَه إلى الأقلام
وتأوهت غُرَرُ القوافي بعده
ورمى الزمانُ صحيحَها بسَقام
أودى مُثَقِّفُها ، ورائضُ صعبِها
وغديرُ روضَتِها أبو تمامِ

وروى ابنُ البحترى أن أباه رثى أبا تمام ودعبلاً بخمسة أبيات أوردها الصولي (٢٧٤) وهى ليست من جيد الشعر ، ولا هى مثبتة فى ديوان أبى عبادة وفيها :

قد زاد في كلفي وأوقد لوعتي

مثوى حبيبٍ يوم مات ودِعبلِ

حدثٌ عَلَى الأهواز يبعُد دونَه

مسرى النعيِّ ورِمَّةٌ بالموصل

وتنفس الصعداء خصومه وحساده فى وفاته فرثاه أحدهم بهجاء وضيع :

صفاته وأخلاقه :

« كان أبو تمام أسمر طُوالاً فيه حُبْسة وتمتمة يسيرة ؛ حلو الكلام فصيحاً ، كأن لفظه لفظ الاعراب » .

ولكنه كان إذا أنشد قبيح الانشاد ، ولذلك اشترى غلامه الفتح بثلاثمائة دينار ، لحُسن انشاده الشعر وفصاحته وأدبه .

وكان كريم النفس ، جم المروءة ، أبياً ، لا يتذلل ، مترفعاً لا يجيب على الهجاء ، ظريفاً ودوداً ، يرعى حرمة الأدب ويراها نسباً بينه وبين الأدباء ، يبذل للمحتاج منهم ماله وجاهه . وربما بخلت كفه . شكا اليه البحتري قلة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان يوصيهم به ، فأكرموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم حتى كان البحتري يقول : « والله ما أكلت الخبز الا به » .

وكان حاد الذكاء حاضر البديهة ؛ سريع الجواب ، في شكل عجيب ، وقد شهدنا ذلك فى قصة البيتين اللذين مدح بهما أحمد بن المعتصم ، وكان فوق هذا قوي الحافظة جمع صدره ما لم يلحقه فيه غيره ، فقيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب ، غير القصائد والمقاطيع ، وقيل إنه حفظ سبعة عشر ديواناً للنساء ؛ وكان غزير الفضل واسع المعرفة حسن

جسدها وهو بالموقدة صال » . ويظهر أنه كان رقيق الدين تماجناً لا اعتقاداً الاختيار ، راجح العقل ، مرهف الشعور « تأكل النفس الروحانية جسمه كما يأكل السيف المهند غمده » . فكان لذلك أثره في منتخباته الرائعة من أشعار المتقدمين وفي غوصه على المعاني بما لا يعرف عن سواه .

لهوه :

قيل إنه كان صاحب طرب ظاهر ، ولهو خفي ، يشتري الغلمان ويتغزل بهم ، ويشرب الخمرة ولكن من غير إسراف ، ولم يكن يتعهر ولا يصارح بالمجون كغيره من خلعاء الشعراء ، وبذلك كانت الرصافة أغلب عليه ، وإذا تحداه أحد العظماء ليجره إلى العبث أبى وأظهر العفة والجد .

دينه :

وكان إلى تلك الكثرة من المعاني الإسلامية التي طرقها ، وإلى شدة الاعتزاز بالعروبة والإسلام ، ضعيف المحافظة على أركان الدين ، متهاوناً باحكامه .

وفد على الحسن بن رجاء الكاتب في خراسان ؛ قال الحسن : « فبلغني أنه لا يصلي فوكلت به من لازمه أياماً . فلم يره صلى يوماً واحداً ، فعاتبته ، فقال : « يا مولاي ، قطعت إلى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة ، وبعد الشقة ، ولم أره يثقل عليّ ، فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني ، وتركها يضرني ما تركتها » فعرف الحسن رقة دينه ، وأراد قتله لولا أنه خشي أن يحمل على غير هذا .

وقال عنه أبو العلاء في رسالة الغفران : « وأما أبو تمام ، فما أمسك من الدين بزمام ، فان قذف في النار حبيب ، فما تغني المدح ولا التشبيب . . . »

وقال : « وان كان حبيب ضيع صلواته فانه لضال ، لا يبلغ فيه كيد العداة ، ما بلغ من إهمال غداة ، وانى لأضنُّ بتلك الاوصال ، ان يظل

كما يذكر صاحب مروج الذهب ـ لانا نرى فى ديوانه وصفاً لحجة حجها ، كما نرى في شعره تمسكاً بروح الاسلام واعتزازاً بسننه وامجاده .

مذهبه السياسي :

اما مذهبه السياسى ، فقد كان بادىء الامر علويا يتشيع ويظهر العطف على أبناء فاطمة عليها السلام ويقول :

فعلتم بأبناء النبي ورهطه أفاعيل أدناها الخيانةُ والغدرُ

وكان هذا التشيع قبل ادراكه العقد الثاني من عمره ، وتقربه من الخلفاء والأمراء العباسيين . فلما عرف النعمة والجاه التزم التقيّة وانقلب عباسياً يؤيد بني العباس ويمدح أمراءهم وعظماءهم ، فأغدقوا عليه النعم وأعلوا مكانته . وقديماً قيل « اللُهى تفتح اللَهى » (١) .

أسرته :

عرف لأبي تمام أخ يقال له سهم ، وكان يقول الشعر دوناً فمن شعره :

ونازعته شيئاً إليه مُبغَّضاً فلما رأى وجدي به صار يعشقُهْ

فدعه ولا تحزن عَلَى فائز به فإن جديدات الليالي ستُخلقُهْ

وقد كان يجيء أخاه يستميحه ، فيوصي به .

وكان لشاعرنا ابنٌ شاعرٌ هو تمام وبه يكنى ، وكانوا يستضعفون شعره ، ويستملحون حديثه إذا تكلم ، ويقولون : «يا بُعْد ما بينه وبين أبيه ، إن لم يكن معه شعر أبيه ، فمعه ظرفه » .

(١) اللُهى جمع لهُوة : أفضل العطايا وأجزلها . واللها جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم . ويراد بالمثل أن العطايا تفتح الفم بالثناء .

- ٢ -

الشاعر الطائي

مكانته الأدبية :

كان لأبي تمام طوال حياته زعامة أدبية لم يبلغها من الشعراء سواه ، وكان الذي يريد أن يتكسب بالشعر يرى واجباً عليه أن يعرض شعره على أبي تمام ليفسح له المجال فى التكسب ، لأنه سد على الشعراء أبواب الرزق ، فلم يكن أحد يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام ، ولهذه الزعامة والشهرة أسباب :

أولها الثقة بالنفس، فقد كان يعرف من نفسه ما حليت به من أدب وعلم، وكانت ثقته بنفسه قوية ، خرجت به إلى نتائج عملية حملته، أولاً، على استبتاء كل ما ينظم ، فلم يكن يطرح من شعره ما يجب طرحه ، مما تلوح عليه آثار القبح أو الغموض أو الاسفاف أو الضعف، وكان يرى أن كل بيت من شعره بمثابة ابن له ، وهو لا يفضل من أولاده الصحيح على السقيم ، ولا الجميل على القبيح ، وحملته هذه الثقة ، ثانياً، على التجديد وجرح آراء المحافظين ونقد نظرية من يقول «ماترك الأول للآخر شيئاً» فكان يرى خطأ قول زهير :

ما أُرانا نقول إلا مُعاراً أو مُعاداً من قولنا مكرورا

وقول عنترة : « هل غادر الشعراء من مُتردَّم»

وما كان يصح عنده أن الأولين قد استنفدوا أحسن القول وأجمل المعاني ، إذ من الظلم للفكر الانساني أن نزعم قصور المتأخر عن شأو المتقدم، فعلينا أن نقول : « كم ترك المتقدم للمتأخر » وأن نزيد فى هذه الثروة المتروكة لأن « باب

الابداع للمعاني ـ كما يقول ضياء الدين الموصلي ـ مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن ذا الذي يحجر على الخواطر ، وهي قاذفة بما لا نهاية له »

ولقد قوّى هذه الثقة بالنفس سبب ثان من أقوى الأسباب الحاملة على الاعتماد على النفس هو اتساع المعرفة ، وعمق الثقافة ، وكثرة ما ضمه صدره من أنواع العلوم .

والواقع أن أبا تمام من أولئك الشعراء الذين يضن الزمان بمثلهم فى المعرفة والثقافة والعلم ، وقد عرفنا ما كان يحفظ من ألوف الأراجيز عدا المقطعات والقصائد ودواوين النساء ، يضاف إلى هذا أنه نخل كتب الأدب واختار ست مجموعات من أشعار الفحول فى الجاهلية والإسلام ضاعت كلها إلا ديوان الحماسة الذي جمعه حينما اضطر للبقاء فى همذان بسبب الثلج فى زيارة عبد الله بن طاهر .

وثقافته فى اللغة وأبوابها ، والفلسفة وآفاقها ، وعلوم عصره على اختلاف أنواعها ، ظاهرة فى شعره ، فلا تكاد تذكر علما مستفيضاً من علوم بني العباس دون أن ترى مشاركة أبي تمام فيه : كأيام العرب ، وأحوالهم وأمثالهم ، وأحداث التاريخ ، وأخبار الأمم الخالية كالفرس ، واليونان ؛ ومختلف العلوم ، ومناحي الفلسفة مما يدل على نفسه في كلامه ؛ حتى كانوا يقولون : إن عقله وعلمه فوق شعره ؛ وحتى عُد فى طبقات النحاة ورجال الثقافة العامة ، فمن آثار هذه الثقافه النحوية قوله فى الخمر :

خرقاء تلعب بالعقولِ حَبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

والملاحظ فى هذه الثقافة أن صاحبها قد هضمها وتمثلها وتصرف بها كيفما

شاء ، فكانت مطاوعة له ، يُحسن الاستشهاد بها والاعتماد عليها في بيان آرائه ومعانيه وومضات فكره ، فمن ذلك قوله فى الخمر أيضاً :

جَهْمِيَّة الأَوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهرَ الأَشياء

وبيان هذا المعنى يقتضي أن نلم بمذهب جهم بن صفوان ، فقد كان يمنع أن يسمي الله باسم ، لأن الاسم عنده يطلق على الجوهر والعرض معاً ، والخمرة عند أبي تمام قد رقت حتى كادت تخرج عن أن تكون عرضاً أو جوهراً ، ولفخامتها وعظمتها لقبت جوهر الأشياء ، فهى مسماة وغير مسماة فى وقت واحد .

ويقول فى موضع آخر :

عَمْريُّ عظْمِ الدين جَهميُّ الهوى

ينفي القوى ، و يُثبِّت التكليفا

ولفهم هذا البيت يجب أن نلمَّ بما كان عليه عمرو بن عُبيد من الزهد والدين والفقه والورع ، وما كان يقول به جهم بن صفوان من نفي القدرة عن العبد فى ما هو مأمور به ، وجعله مكلفاً مع ذلك ، ويراد بالبيت أن الممدوح مجبر على البذل فلا يستطيع تركه .

ويقول فى ألفاظ المتكلمين عن الجوهر والعرض :

مودَّة ذهب ، أَثمارها شَبَهٌ وهمةٌ جوهر ، معروفها عرض

ويقول فى ألفاظ الفقهاء من الخطأ والعمد :

فإن يك جرم عنَّ أو تكُ هفوة

عَلَى خطأ مني فعُذري عَلَى عمدي

ومن ذلك ضربه المثل فى المديح بالمشكاة التي ضربها الله مثلاً لنوره ، وقوله فى وصف شعل النار التي أحرق بها الافشين [1] :

ففصلْنَ منه كل مجمع مفصِل وَفعلن فاقرةً بكل فقار

أخذه من قوله تعالى : « تظن أن يفعل بها فاقرة »

والأمثلة كثيرة على مبلغ اتساع ثقافته وظهور آثارها فى شعره . وقصيدته البائية في فتح عموريه ، أو غيرها من شعره يقفنا على كل ما تقدم ويوضح لنا فكرة الآمدي إذ يقول :

« كان أبو تمام مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية ، وان العلم فى شعره أظهر . وانه أتى بمعان فلسفية »

وقد أعانته هذه العلوم على إيجاد معان جديدة مخترعة ماعرفها المتقدمون من ذلك قوله فى الشيب :

شعلةٌ في المفارق استودعتْني في صميم الفؤاد ثُكلا صميما
يستثير الهمومَ ما اكتنَّ منها صُعُداً وهي تستثير الهموما

قال ابن الأثير : « البيت الثاني من المعاني المخترعة ، تفقّه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور والتسلسل ، وهذا من إغراب ابي تمام المعروف» .

وهنا نصل الى سبب ثالث يدعم زعامته هو اختراعه للمعاني ، وهذا وان يكن نتيجة ما أوتي من ذكاء وفطنة ، وارهاف شعور ، وسعة معرفة ،

(١) ثار بابك الخرّمى على المعتصم فأرسل اليه قائده الأفشين حيدر بن كاوس ، وكان من أكابر القواد وفحول الشجعان ، فقبض على بابك وحمله الى المعتصم فقطعه وصلبه ، ثم علم المعتصم خيانة من الأفشين فقبض عليه وقتله وصلبه وأحرقه على مثل خشبة بابك سنة ٢٢٦ هـ .

واعتداد بالنفس ، فهو ركن من دعائم شهرته يتجلى فى غوصه على المعاني ، واتيانه بما لم يعرف الشعراء والأدباء من قبل ، حتى أجمع الأئمة على أن له كثيراً من المعاني المخترعة ، كدّ ذهنه فيها ، وانهك جسمه فى سبيل الوصول اليها ، وربما ظهرت آثار الدم في عينيه لكثرة الإجهاد والتفكير ، وبهذا رأى أبو تمام انه يستطيع أن يصل الى أعمق مما وصل اليه السابقون فقال :

فلو كان يَفنى الشعرُ أفناه ماقرت
حياضُك منه في العصور الذواهبِ
ولـكنه صوبُ العقولِ إذا انجلتْ
سحائبُ منه أعقبتْ بسحائب

وقال :

يقول من تقرع أسماعَه : كم ترك الأول للآخر!

وكان أبو تمام يعشق المعنى الجديد الى أبعد مدى ، ويهمه وعاء هذا هذا المعنى وكساؤه فيهذبه ويصقله ليظهر معناه فى رداء قشيب ، ولكنه إن شعر بقصور في المعنى حين تزيين الرداء ،لم يبال باللفظ عُني بالمعنى ، ولاجل هذا قال عنه ابن الرومى : « ابو تمام يطالب المعنى ولا يبالي باللفظ » وقال عنه البحتري : « كان اغوص على المعانى وانا اقْوَم بعمود الشعر » لان البحتري كان يهتم باللفظ العذب ومسايرته لأساليب القدماء اكثر من عنايته بالمعانى العويصة والافكار الجديدة .

فعناية ابي تمام بالمعانى والابتكار فيها تأتى قبل كل شيء ، فاذا وفق للمعنى الطريف عمد الى اللفظ فاختار احسنه ، وصقل جوانبه ، وزين أطرافه واستخدم الصنعة البديعية على مقياس واسع ، حتى يخيل للمرء أن

عنايته باللفظ لاتقل عن عنايته بالمعنى ، والواقع انه كان كذلك ، ولكن اذا كان لابد من الترجيح فالمعنى عنده ارجح ، والاختراع افضل ، وقد عُدَّ له من المعانى المخترعة فى الاثواب القشيبة ما بلغ العشرين وهو كثير بالنسبة للشعراء المخترعين ، من ذلك قوله :

يا أيها الملك النائي برؤيته ... وجودُه لمراعي جوده كثبُ
ليس الحجابُ بمُقصٍ عنك لي أملا ... إن السماء تُرجّى حين تحتجب

وقوله :

رأينا الجود فيك وما عرضنا ... لسَجْل منه بعدُ ولا ذَنوب
ولكنْ دارةُ القمر اُستتمتْ ... فدلتنا عَلَى مطرٍ قريب

وقوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويتْ أتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ... ما كان يُعرفُ طيبُ عَرف العود

وقوله :

لا تُنكروا ضربي له مَن دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره ... مثلاً من المِشكاة والنبراس

وقوله :

لاتنكري عَطَل الكريم من الغنى ... فالسيلُ حربٌ للمكان العالي

وقوله :

بني مالك قد نبهت خاملَ الثرى ... قبور لكم مستشرفات المعالم

غوامضُ قيدُ الكفِّ من متناولٍ وفيها علاً لا يرتقى بالسلالم

والناظر يرى آثار الصنعة الأدبية البلاغية بادية على هذه المعاني المخترعة ، وهو إن عاد إلى ديوان الشاعر وجد تلك الصنعة مستفيضة أيما استفاضة ، فإذا عدَّ أبو تمام إماماً فى اختراع المعاني ، فواجب أن يعد إماماً فى الصنعة البديعية والاستكثار منها وترويضها حتى اسلست له القياد .

ولكنه ليس أول من مهد السبيل للولوعين بها ، ولا كان أول موجد لها ، فقد سبقته محاولات فنية قطف هو ثمارها وأنمى غراسها حتى ظهر الفن عنده أكمل مما كان عند سواه .

الصنعة في الأدب

والمنقب عن مهد هذه الصنعة يجده فى جاهلية اللغة قبل إسلامها ، إذ يعثر على أنواع من الصنعة والفن كانت تجيء عفو الخاطر دون تكلف أو إعمال ، وهذا امرؤ القيس يقابل ويطابق بين المعانى المتضادة فيقول :

مِكرٍ مفر ، مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكان أوس بن حجر من أكثر الشعراء روية فقال وفى قوله جناس :

قد قلت للركب لولا أنهم عجلوا عو جواعليّ فحيوا الحيّ أو سيروا

ونرى الترصيع فى قول طرفة :

بطيء عن الجُلّى ، سريع إلى الخنا ذلولٍ بأجماع الرجال مُلهَّدِ

ثم جاء القرآن الكريم وفيه كثير من المحسنات البديعية كالازدواج الوارد فى أوساط الآيات فضلا عن تزاوج الفواصل في قوله تعالى : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور » وكقوله تعالى : « ولستم بآخذيه ، إلا أن تغمضوا فيه » .

وورد فى القرآن الكريم كثير من السجع ، وربما جاءت سور بكاملها ملأى بالسجع كسورة الرحمن والقمر ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

«والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً » .

وقد جاء فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم محسنات بلاغية كثيرة ، كقوله للأنصار وفيه الطباق والسجع : « إنكم لتكثرون عند الفزع ،

وتقلون عند الطمع » ، وقوله مسجعاً : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » (متفق عليه) وكقوله عند قدومه المدينة : « افشوا السلام ، واطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا : إنا لنستحي من الله يارسول الله قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا » .

وفى بعض كلام الرسول مزاوجة ربما حملته على صرف الكلمة عن الأصل لمشاكلة الكلمات فى اللفظ كتعويذه لسبطه : « أعيذه من الهامّة ، والسامّة ، والعين اللامّة » وأصلها الملمة من ألمّ .

وكقوله لنساء : « انصرفن مأزورات ، غير مأجورات » والأصل موزورات ؛ ومن صرف الكلمة عن أصلها ماقاله قس بن ساعدة فى عكاظ : « جبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة » والأصل مدحوة ، وصرفت عن أصلها لمشاكلة أخواتها . والملاحظ فى كل هذا بُعده عن التكلف حتى أن الرسول حينما قضى على رجل بدية جنين قال الرجل : « أأدي من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك بطل » فنفر الرسول من هذا السجع وقال : « أسجعاً كسجع الكهان » ، وهكذا كانت الصنعة ، تأتى عفو الخاطر ، فى الجاهلية والإسلام وإنا لنرى آثارها فى شعر الشعراء الأمويين ، فجرير وهو أطبع شاعر أموى يقول وفى قوله طباق :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شر عنكم بشماليا

ونوع آخر من الصنعة الفنية هو الاستعارة بأنواعها ، وأعظمها تلك التي تضع الأشياء على مرأى العين فتشخصها وتجسمها ؛ وكان لأبى تمام مجال الإبداع فيها كما سنرى ، وقد وردت فى شعر الجاهلية فقال امرؤ القيس فى صفة الليل :

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فجعل الليل مجسما له صلب يتمطى به ، وأعجاز يردفها ، وكلكل ينوء به ، ومثله قول طفيل :

وجعلتُ كوري فوقَ ناجيه يقتاتُ لحمَ سنامِها الرحلُ

فجعل الرحل حيواناً يأكل السنام .

وقول لبيد :

وغداةِ ريحٍ قد كشفتُ وقِرَّةٍ إذ أصبحتْ بيد الشمال زمامُها

فجعل للريح الشمالية يداً تمسك بها الزمام .

ومثله فى القرآن الكريم قوله تعالى : « كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فجعل الضلال والإيمان شيئين مرئيين هما الظلمة والنور . وقوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : « رب إنى وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً » كأنما الرأس وقود يلازمه الاشتعال .

وقوله عز وجل : « ولما سكت عن موسى الغضب » فجسم الغضب كأنه إنسان وشبه انتهاء الغضب بالسكوت ؛ وأمثلة ذلك كثيرة ، وجاء الشعراء والأدباء من بعد يعتمدون على هـذا الضرب من البلاغة دون تكلف أو إعمال فكر، حتى كثر المستعربون ،وأوشكت الطباع أن تقصر

عن اللحاق بالمتقدمين ، وفشا حب التزين والتأنق فى الحيـــاة وفى الـكتابة معاً .

ولقد كان أول من أكثر من هذه المحسنات والاستعارات صريع الغوانى مسلم بن الوليد أستاذ أبى تمام ، وذهبت طـائفة إلى أنه أول من فتح باب الصنعة للشعراء ، فأخذ طريقته أبو تمام وبالغ وأغرق ، ولـكن لأبى تمام طريقة خاصة كما سنرى فى الكلام على فنه .

وجاء بعده جماعة أغرموا بالصنعة كثيراً ، وبرع فيها فى القرن الرابع ابن العميد والصاحب ابن عباد وبديع الزمان ، وكانت لا تزال فيها بقية من طبع دون تصنع ممقوت ، وأعقب هؤلاء فئة ذهبت فى الصنعة بعيداً وتكلفت إلا أنها كانت على جانب من البـلاغة وصفاء الذهن أخفت تحته قبح التكلف وعناء الاجهاد ، ومثل هذه الطبقة الحريري أحسن تمثيل ، وأعقبتها جماعة جعلت الـكتابة رصفاً وتزييباً كالقاضي الفاضل ايام صلاح الدين حتى أصبحت العهود تكتب مسجعة ، وصارت الصنعة رداء العجز وقصور الطبع ، ولم يستطع الآتون أن يبلغوا ما بلغ الأولون ، فهوت الـكتابة ، وجاءت العصور المظلمة من أيام الانحطاط فخبا الطبع حتى نهضت اللغة من جديد ، فى القرن التاسع عشر فـكان الحريرى إماماً ينسج على منواله ، ثم انطلق الناس من قيوده وعادت للكتابه طلاوتها ورونقها كما ترى فى أيامنا .

اساتذته :

عرفت مبلغ ما كان يتحلى به أبو تمام من ثقافة واسعة فى العلم والأدب ، وأنه درس الشعراء المتقدمين وتنخل من شعرهم أحسن ما وجد فجمع ست مجموعات تدل إحداها على فضل وعلم غزيرين .

كان كل أولئك مؤثراً فى معرفته ، ولكن طابع التجديد والفن كان

من أبرز ما عرف عنه ، وهما من آثار شاعرين كبيرين تتلمذ عليهما أبو تمام وأخذمنهما أخص ما امتازا به ، فقدقالوا انه كان يكثر من النظر فى ديواني أبي نواس ومسلم بن الوليد ، وقالوا انه سئل عنهما وهو مشغول بهما فقال إنهما « اللات والعزّى » يريد أنه يحل شعرهما محل اللات والعُزى عند عبادهما فى الجاهلية .

والواقع أن أثر الشاعرين الكبيرين واضح فى عبقرية أبى تمام ، وإن كان لغيرهما فيها آثار ، لأن المرء ثمرة عوامل متعددة لا تنكر جميعها وان لم يعرف غير طائفة خاصة منها .

وأنا لنتبين آثار هذين الشاعرين في التجديد والفن حينما نقف على خصائص شعره ، ومدى إحسانه ، ولكن لا بد لنا قبل كل شيء من أن نتبين عصره ونعين موقعه من الشعراء العباسيين وغيرهم .

عصره وموقعه من بقية الشعراء :

طلع العصر العباسي الأول على الأدب العربى بسلسلة من الشعراء يتمايزون في ثقافاتهم ، كما يختلفون في خصالهم ، فكانوا طبقات أو حلقات ، تختلف بحسب تأثير العلم والترجمة عن الأمم المختلفة .

ونحن نذكر أن أول عهد الترجمة الفعلي كان أيام المنصور إذ نقل ابن المقفع كتاب المنطق لارسطو عن الفارسية ، كما نقل عن الفارسية كليلة ودمنة أو بعضه ، والأدب الكبير وغيره .

ونعلم أن الثقافة الفارسية كانت أسبق إلى العربية لقرب الفرس من العرب ، ولذوبان مدنيتهم في البوتقة العربية .

وإذن فقد كان صدر بني العباس أكثر تأثراً بالثقافة الفارسية ، ثم طغى سيل الترجمة عن اليونان فانطبعت الأفكار العربية بالثقافة الجديدة اليونانية وانتفع الناس بالطابعين الأجنبيين معاً .

وتكونت للشعب ثقافة جديدة هي ثمرة هذا الخليط من المؤثرات؛ وعلى هذا الموجز من الكلام على الثقافات نستطيع أن نجعل الشعراء طبقات، أولها الذين ولدوا في عصر بني أمية وقضوا فيه شطراً من حياتهم ثم أدركوا العصر العباسي فكان لهم فيه شأن يذكر، وقد ثقفوا الفارسية إلى حد ما، ولم يكن للعلوم اليونانية تأثير فيهم، وأظهر رجال هذه الطبقة: بشار بن برد، والسيد الحميري، ومروان بن أبي حفصة؛ وبشار زعيم المحدثين على الاطلاق.

والطبقة الثانية هي التي نشأت في ظلال بني العباس ونالت حظاً وافراً من الثقافة الفارسية، وتأثرت نوعاً ما بالثقافة اليونانية، وكانت على كل حال أكثر ثقافة بالفارسية واليونانية من الطبقة الأولى؛ وأبرز من في هذه الطبقة زعيم المحدثين الثاني أبو نواس، ثم أبو العتاهية ومسلم بن الوليد وقد ظهرت علائم الثقافة الفارسية واليونانية على هؤلاء وكانت معاني أبي نواس وزهد أبي العتاهية كبيرة الشبه بالمعاني والحكم الفارسية واليونانية.

ونلاحظ أن الشعر قد بلغ أشده زمن هذه الطبقة، وأخذ الناس يعنون بالبديع أكثر من ذي قبل، وحسبنا أن نذكر مسلم بن الوليد أحد رجال هذه الطبقة وزعيم الصنعة والفن كما مر، فكان من خصائص هذه الطبقة الصقل والتهذيب والفن البلاغي بصورة عامة، والتوسع بعلوم العربية وأنواع المعارف.

ثم جاءت بعدها الطبقة الثالثة التي نشاهد فيها تطوراً جديداً. وذلك أن شأن الثقافة العامة قد عظم واتخذ الشعر شكلاً محبباً مصنعاً، وكان لكل أفق من آفاق المعرفة طابع يظهر في الشعر، وكان أبرز شعراء هذه الطبقة شعراء الشام، وإذا شئت فقل إن هذه الطبقة هي المدرسة الشامية التي حمل مشعلها أبو تمام، فكان للتهذيب والتحسين واختراع المعاني الحديثة والانتفاع بالآراء الفلسفية والحكمية نصيب من جهد الشاعر؛ ومن رجال هذه

السلسلة أبو عبادة البحترى ، ولكن هذا لم يغرق إغراق أستاذه فى المعاني ، وإن لم يكن أقل منه عناية بالتهذيب والصقل .

ويمكن أن نعد فى رجال هذه الطبقة ابن المعتز إذ نجده في شعره يتتبع البديع ويلتزم المحسنات اللفظية حتى يبلغ مبلغ التكلف في بعض الأحيان ، وقد كان من السابقين إلى التأليف فى علم البديع ، ونعلم بعدئذ أن الخيال وحده لم يعد يكفي الشاعر للاجادة والاحسان ، بل لا بد له من ثقافة عامة ، وعلم واسع ، وعناية خاصة ، هي ظاهرة المدرسة الشامة التي بسطت سلطانها على الشام والجزيرة ، وفتنت لطائفها كبار الأدباء كالصاحب ابن عباد . وكان من رجال هذه الطبقة ابن الرومي ، وشعره من أكبر مظاهر الثقافة الفارسية الرومية حتى قيل عن وحدة القصيدة عنده إنها من تلك الآثار .

وجاءت طائفة بعد هؤلاء أغرقوا في هذه الخصائص ايما اغراق ، ورأوا أن الشاعر يجب أن يكون عالماً متبحراً قبل أن يكون ناظما مستعذب الكلام . ومن أوتى الناحيتين فقد أوتي خيراً كثيراً ، وكان أبرز من مثل هذه الطبقة المتنبي والمعري وهما الذروة التي وصلت إليها الثقافة الأدبية والصنعة الفنية .

فاذا تبينا هذا وعدنا إلى النهضة الأدبية التي كانت فى القرن الثاني والثالث من الهجرة وإلى اتساع رقعة المملكة الاسلامية عرفنا أي عصر ذهبي عاش فيه أبو تمام . وعرفنا موقعه من شعراء عصره ومن شعراء العرب على وجه أعم .

فن ابي تمام

لعل أوضح سبيل للتعرف إلى هذا الفن أن نضع أمامنا أنموذجاً من أروع القطع التي جود فيها أبو تمام، فاذا نظرنا في الأبيات مجتمعة ومنفردة، وسألنا كل بيت عما فيه من علم، أولفتة فكرية، أواشارة بلاغية، فاناواصلون إلى تعرف النواحي المتعددة من شعره، وبالغون الحكم العادل فى قيمته.

لننظر فى قصيدته عن عمورية او غيرها، تطالعنا ثقافة عالية تدل على مختلف نواحي المعرفة أيام بني العباس، والى جانبها صنعة تجيء أحياناً عفو الخاطر، وتظهر عليها أحياناً آثار العنف والاكراه، واذا دققنا فيما نقرأ شهدنا الحكمة اليونانية، والمعاني الفارسية، والأفكار الاسلامية، والذخيرة العربية متساوقة منسقة معروضة فى أجمل عرض، ورأينا الكنايات والاستعارات تجمّل الكلام حيناً، وتخرج عن حد الاستطراف الى التكلف حيناً آخر.

فأول ما يبدهنا من كلامه خروج عن طريقة العرب المألوفة في الابتداء من الوقوف على الاطلال ومخاطبة الصحاب، إذ نرى أبا تمام يبدأ بالحكمة والركون الى القوة والاعتماد عليها فى أحقاق الحق؛ ثم الصنعة بأقسامها المختلفة مستفيضة مسرفاً فى استعمالها.

ونلمس فوق هذا اثار الجهد وكد القريحة لبلوغ الأعماق من المعاني واستخراج شيء جديد من الصور، ثم نرى أن هذا التعمق كان يصل

بالشاعر الى براعة فى التصوير مع حسن مراعاة للصنعة ، ولكن شدة التعمق تعرضه فى بعض الأحيان لمقال اللائمين ؛ انظر فى قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ
في حده الحدُّ بين الجِدّ واللعبِ

فقد جانس بين الحدين وطابق بين الجد واللعب ثم قال :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب

فجانس بين الصفائح والصحائف جناساً غير تام ، وطابق بين البياض والسواد فكان لنامن ذلك صناعة لطيفة الى جانب التفكير والرأي السديد .

واذا ذهبنا فى القصيدة أو فى غيرها نستقصي ما فيها من استعارات وصنعة لفظية ومعنوية الى المعاني العميقة ، والمعرفة الواسعة طال بنا نفس القول ووجدنا فيها كثيراً مما أشرنا اليه .

المقابلة والطباق :

والشيء الذي يسترعي انتباهنا في شعر أبي تمام ولوعه بانتقاء المعاني في المقابلة والطباق فكان يكثر من هذا النوع ، فمن ذلك مقابلته فى اللفظ والمعنى مما قد أحسن فيه إذ قال :

ما إنْ ترى الأحسابَ بيضاً وُضَّحاً
إلا بحيثُ ترى المنايا سودا

ومن ذلك قوله :

إذا كانت النُّعمى سَلوباً من امرىء
غدت من خليجي كفه وهي متبعُ (١)
وإن عثرتْ بيضُ الليالي وسودُها
بوحدته الفيتَها وهي مجمع
ويومٌ يظل العز يحفظ وسطه
بسمر العوالي والنفوس تضيع
مصيف من الهيجا ومن جاحم الوغى
ولكنه من وابل الدم مربع

وقوله :

إذا تظلمتُ من أرض فصلتُ بها
كانت هي العز إلا أنها ذلل

وقوله :

وظلمت نفسك طالباً إنصافها
فعجبت من مظلومة لم تظلم

فهو في كل ذلك يعمد الى الطباق على شكله العادي المألوف ، كما مر ، وتراه أحياناً يستخدمه بصورة معقدة مفلسفة ، تبعده عن سذاجته الاولى التي نجدها عند مسلم بن الوليد واضرابه ممن عنوا بهذا النوع من التحسين فمن ذلك قول شاعرنا :

(١) السَّلوب : المسلوب ولدها ؛ المتبع : التي يتبعها ولدها

هي البدر يُغنيها تودُّد وجهِها إلى كلِّ من لاقتْ وإن لم تَوَدَّدِ

أي أن وجهها يتودد بسحره وجماله وان كانت هي أبية ممتنعة ، ومثل ذلك قوله :

رُبَّ خفض تحت السُّرى ، وغَناء من عَناء ونضرةٍ من شحوب

كأنما يقول كم من راحة جاءت بعد تعب ، وخير من شر .

ويظهر ما للتضاد عنده من مكانة عالية في شرح أفكاره والإبانة عن قصده ، وحينا تستقصي كثيراً من شعره فترى كيف كان يعمد الى الإكثار من هذا النوع ، خذ قوله في أحمد بن أبي دؤاد مادحاً :

قد غرستم غرسَ المودة والشحناء في قلب كل قارٍ وباد

ابغضوا عزكم ووُدوا نداكم فقرَوكم من بغضةٍ ووداد

لا عدمتم غريب مجدٍ رَبقتم في عُراه « نوافر الأضداد »

و « نوافر الأضداد » هذه التي عناها هي ما قصد اليه من « أن الناس يحسدونهم لشرفهم ويحبونهم لجودهم » .

فهذا التضاد الجميل فى الفكرة نوع من التحسين أولع به واكثر منه ؛ وهو تضاد يقوم على تفكير عميق مستمد من ثقافة أبى تمام الفلسفية ومن مزاجه الخاص .

التدبيج :

ومن أنواع الصنعة التي أبدع فيها أبو تمام « التدبيج »[1] وكان

(١) من دبج المطر الارض إذا زينها .

يستعمله ألواناً متعددة في المعاني لقصد الكناية والرمز إلى فكرة خاصة ، من ذلك قوله في رثاء ابن حميد الطوسي :

تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر

يعني ارتدى الثياب الملطخة بالدم ، فلم ينقض يوم قتله حتى صارت ثيابه من سندس خضر ، أي من ثياب أهل الجنة ، فجمع بين الحمرة والخضرة وقصد بالأول الكناية عن القتل ، وبالثاني الكناية عن دخول الجنة ، فوجد الشاعر في التدبيج نوعاً من الرمز لافكاره .

ويقول لبعض القواد في تبيان ما آلت إليه اذربيجان من هناءة بعد شقاوة :

جلوتَ الدجى عن أَذْربيجانَ بعدما
تردَّت بلون كالغمامة أربد

وكانت وليس الصبحُ فيها بأبيضٍ
فأمست وليس الليلُ فيها بأسود

وهو في هذا يرمز الى أفكاره عن طريق التدبيج ؛ وهاهو ذا يرمز الى أحداث الايام المواتية والمعاكسة في قوله :

أما وأبي الرجاء لقد ركبنا مطايا الدهر من بيضٍ وسود

والاغراق في الميل الى الطباق والتضاد هو الذي جعل فريقاً من الباحثين يجنحون الى ماذكرناه من أنّ التضاد سجية في أصل طباع الشاعر ، إذ كان يجمع في نفسه الفكر المتضادة ، وقد عرفنا انه حج ، وأنه قال عن الصلاة ما يحل قتله عليه ، وانه كان يشح احياناً لجانب جوده ، ومهما يكن من أمر فقد أولع الشاعر بناحية فنية قائمة على روية وتفكير ، وتهذيب وقصد ، وفلسفة شخصية عميقة .

الجناس :

والى جانب الطباق نجد شيئاً آخر من الصنعة قد اكثر منه ، وهو الجناس ، فمن ذلك قوله :

بكل فتى ضربٍ يُعرِّض للقنا مُحيىً مُحلّىٰ حليه الطعنُ والضرب

فالضرب الاولى الرجل الخفيف ، والثانية الضرب بالسيف .

وقوله :

فأصبحت غررُ الأيام مشرقةً بالنصر تضحك عن أيامك الغررِ

فالغرر الأولى استعارة من غرر الوجه ، والثانية من غرة الشيء وهى أكرمه ، وقوله :

من القوم جعدٌ أبيض الوجه والندى وليس بنانٌ يُجتدىٰ منه بالجعدِ

الجعد الأول السيد ، والبنان الجعد ضد السبط ، فأحدهما وصف للسخي والثانى للبخيل ، وقوله :

عداك حرُّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحَصِب (١)

فالثغور جمع ثغر وهو الفم ، وهو ايضاً البلد على تخوم العدو ، وقوله :

بِيضٌ إذا انتُضِيتْ من حجبها رجعت

أحقَّ بالبِيض أبداناً من الحجب

(١) الحَصِب : اللبن لا يخرج زبده من برده ، ويكنى به هنا عن الريق العذب البارد ؛ أما الحَصِب فكثير الماء والعشب والخير وهي التي أوردها الديوان ولكنه كنى بها عن شدة البرودة (ص١٠) ؛ والأولى أرجح عندنا

فالبيض السيوف ، وهي القدود والنساء على الاستعارة ايضاً ، وهذا من النادر الذي لا يتعلق أحد به . وقوله :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا
صدور العوالي في صدور الكتائب

فلفظ الصدور واحد والمعنى في الأول أعالي الرماح وفي الثاني مقدمة الجيش ، وقوله :

عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صَيْهود
حتى أُغادر كل يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد

فالعيد فحل من فحول الإبل . والعيد اليوم المعروف من الأيام .

ومن التجنيس غير التام الذي تساوت الفاظه في الوزن واختلفت في التركيب بحرف واحد قوله :

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصول باسياف قواضٍ قواضب

ومنه في ما اختلفت الفاظه في الوزن والتركيب بحرف قوله :

أيام تُدمي عينَهُ تلك الدُّمى فيها وتقمرُ لبَّهُ الأقمار

وقوله في البيت الثاني والرابع خاصة : (١)

أي ربع يكذب الدهر عنه وهو ملقى عَلَى طريق الليالي
بين حال جنت عليه وحول فهو نضو الأحوال والأحوال
أي حسن في الذاهبين تولى وجَمال عَلَى ظهور الجِمال
ودلالٍ مخيم في ذرى الخيـ ـم وحِجْل معصّم بالحِجال

(١) لم يورد طابع الديوان البيتين الأولين (ص ٤٥٨) وأوردها ابن الأثير في المثل السائر ص ١٠٢ ؛ وورد في الديوان كلمة (معذّب) بدل (معصّم) التي أوردها ابن الأثير .

وأبو تمام يكثر من التجنيس على اختلاف أنواعه وقد أحسن فى طائفة وأساء فى غيرها ، ولقد ظُنّ من التجنيس قوله :

أظن الدمع في خدي سيُبقي رسوماً من بكائي في الرسوم

وليس هذا بتجنيس لأن المعنى لم يختلف في كلمة الرسوم وهـذا هو المسمى « بالترديد »

وعُدّ من أقسام التجنيس قوله : « وأنت لِمَ لاتفهم ما يقال » لمن قال له « لم لا تقول ما يفهم » وهو المسمى « بالمعكوس » .

المجازات والكنايات :

وإلى جانب الطباق والجناس اللذين أغرق فيهما أبو تمام نرى له مجازات واستعارات وكنايات كثيرة ، فمن استعاراته الجميلة قوله :

لما غدا مظلم الأحشاء من أشر أسكنتَ جانحتيه كوكباً يقدُ

فاستعارة الكوكب للرمح استعارة لطيفة ، ومثله قوله فى الاعتذار :

أسري طريداً للحياء من التي زعموا وليس لرهبة بطريد

وغدا تبين ما براءة ساحتي لو قد نفضت تهائمي ونجودي

استعار التهائم والنجود لباطن أمره وظاهره ، وقوله :

كم أحرزت قُضُبُ الهنديّ مصلتةً تهتز ، من قُضُبٍ تهتز في كُثُب

استعار القضب والكثب للقدود والارداف ، وفى هذه القصيدة عن انهزام ملك الروم فى فتح عمورية قوله :

إن يعدُ من حرها عدو الظلم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

استعار الخطب للقتلى ، ومن أحسن استعاراته قوله في الغزل :

كُنتُ أرعى النجوم[1] حتى إذا ما فارقوني أمسيت أرعى النجوما

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبكينا طلولها والرسوما

وسألنا ربوعها فانصرفنا بسقام وما سألنا حكيما

والاستعارة الجميلة في تشبيه الأحبة بالنجوم (أو البدور) في البيت الأول، ومن تشابيهه الحسنة قوله :

أي مرعى عين ووادي نسيب لحبته الأيام من ملحوب[2]

يريد أنه كان كأنه مرعى العين ومرعى النسيب لجماله وطيبه ، ومن هذه التشبيهات تشبيهه شيئاً مادياً بشيء معنوي في قوله :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابة بالمحب المغرم

ومن تشبيهه قوله وفيه تشبيه المركب بالمركب :

معشر أصبحوا حصون المعالي ودروع الاحساب والأعراض

فشبههم في منعهم المعالي من أن ينالها أحد سواهم بالحصون في منعها من بها وحمايته ، ومنه قوله :

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وقوله وفيه تشبيه المركب بالمفرد :

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصوَّر

تريا نهاراً مشمساً قد شابَهُ زهر الرُّبى فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر .

(١) في الديوان : (البدور) (٢) لحبته : وطئته ؛ ملحوب : مكان .

ومن كناياته قوله :

مالي رأيت ترابكم يبس الثرى مالي أرى أطوادكم تتهدم

ويبس الثرى كناية عن تنكر الصداقة ، تقول : يبس الثرى بيني وبين فلان ، إذا تنكر الود الذي بينك وبينه ، وكذلك تهدم الأطواد فانه كناية عن خفة الحلوم وطيش العقول عند الامام الموصلي (ص٢٤٩) .

التجسيم والتشخيص :

ويلاحظ الباحث أن الصنعة البديعية تصاحب المعانى التي يوردها عن طريق الاستعارة ، وهنا مجال الانتباه إلى أمر جديد فى صنعة أبى تمام يظهر لنا إذا أنعمنا النظر في قوله :

كلّ يوم له وكلّ أوان خلقٌ ضاحكٌ ومال كئيب

فان فيه طباقاً بين الضحك والكآبة ، واستعارة فى الخلق الضاحك ، والمال الكئيب ، ونلمح فوق هذا أن الأمر المعنوى كالخلق أصبح شيئاً محسوساً (مجسما) .

وهذه الطريقة فى (تجسيم) الامور والمعاني ، وجعلها فى اطار المادة الملموسة ، كبيرة الأثر في شعره ، وهي فى أصلها استعارة يجعل الشاعر لها حدوداً مادية مع براعة فى التصوير ، ومثل ذلك ماتراه فى قوله :

راحت غواني الحي عنك غوانيا يلبسن نأياً تارةً وصدودا

فانك تجد الجناس فى الغواني ، ، والتجسيم فى لبس النأي ولبس الصدود ، كأنها رداءان يلبسان ، والى جانب هذا التجسيم نوع شبيه به ، وهو (التشخيص) أي افتراض الاشياء اشخاصاً لها خصائص الاحياء ، من ذلك قوله فى قصيدة ربيعية :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغدا الثرى في حلْيه يتكسر
من كل زاهرةٍ ترقرقُ بالندى فكأنها عين إليك تحدَّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها عذراء تبدو تارة وتخفَّر
حتى غدت وَهَداتها ونجادها فئتين في حلل الربيع تبختر

فجعل الثرى كالعروس يتثنى فى حَلْيه ، والأزهار كالعيون تترقرق بالندى ، والنبت الجميم الذي يغطي الأرض يحجب الزهر الذي يظهر تارة ويختفي اخرى ، والأرض تتبختر في حلل الربيع ، وكل ذلك (تشخيص وتجسيم) لا يبعد عن الاستعارات ، ولكنه تصوير رائع ، واظهار للصور بيّن لاتكاد تخلو قصيدة من قصائد أبي تمام من أشباهه ، وإغراق الشاعر فى هذه التجسيمات والتشخيصات ابعده عن طريقة العرب الخالصة فى الاستعارات ، فذكر الآمدى أن العرب تستخدم الاستعارة « فيما يقارب المشبه به ويدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو يكون سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذى استعيرت له وملائمة لمعناه » ولكن أبا تمام لم يرتض هذا الحد لانه كان يبتغي التجديد ، فجعل الاستعارات في صور موضوعة تحت الباصرة مشخصة أو مجسمة حية متحركة ، وقد ورد هذا النوع من قبل ولكنهم لم يغرقوا فيه اغراق أبي تمام ، وكان هذا الاغراق مثار استنكار لخروج الشاعر عن المألوف ، ولأن الوصول إلى هذه المعاني العميقة والغوص على الأشياء البعيدة يستتبع غموضاً في كثير من الأحيان ، وهو الغموض الفني الذي قد يعاب عليه بعض الشعراء ممن يعمدون إليه ، ولو أنصف الناس لرأوا خلف هذا نفساً قد عذبت لتصل إلى الوضوح فلم تفلح فى بعض ما تريد .

الغموض والتأويل :

وكان أبو تمام إذا استعصى عليه المعنى ، وحار بصوغه ، جاء كلامه غير

مفهوم ، أو محتملاً للتأويل فى وجوه متعددة ، ولذلك قال له أبو العميثل : « لِمَ لا تقول ما يفهم ؟ » فأجابه أبو تمام: «وأنت لماذا لا تفهم مايقال ؟»؛ ومن أجله قال أعرابي سمع شيئاً من شعره «فى هذه القصيدة أشياء أفهمها، وأشياء لا أفهمها ، فإمّا أن يكون قائلها أشعر الناس، واما أن يكون جميع الناس أشعر منه »

هذه الطائفة من الناس لا تحب البحث عن المعنى ، والتعب فى تفهمه ، كما تعب الشاعر فى إيجاده ، لأنها لم تألف العناء في الشعر ، وانما كانت تراه عملاً يرضى الذوق ، وينحدر الى السهولة ، وليس للعقل أيُّ عمل فيه ، وذلك كله خلاف ما كان يذهب اليه أبو تمام ، إذ كان يعد صنعة الشعر عملا عقلياً متعباً ، يجب أن يرتفع الناس الى أفقه ، وأن يجهدوا أنفسهم للوقوف على معانيه ، والكلمات عنده رموز تشير الى معان خلفها ، يجب على القارئ ان يستشفها من ثنايا تلك الحروف ، فالشعر محتاج الى التدبر والتفكير والتفسير ، وهذه الألفاظ ان هى إلا أوعية رمزية لأفكار هى المقصودة بالذات ، ولذلك كان انصراف الشاعر الى المعنى أصل فنه ، وأساس تفكيره، ومن أجل هذا كانت له هنات خرج فيها عن مجرى الشعر العربى ، فانتقد عليها انتقاداً شديداً ، لأن المعنى الظاهر في اللفظ السهل ، هو الأقوم فى عمود الشعر عند اولئك، وكان أبو تمام يتمنى معهم لو يصح له اللفظ والمعنى معاً فلم تكن عنايته باللفظ يسيرة ، ولكن المعنى يغلبه على نفسه احياناً فيؤثر جانبه ، وهو الأرجح عنده، والصورة اللفظية أرجح عندهم، فجاءته سهام اللوم من هذا الاختلاف ، واشترك فيها الآمدى وغيره من كبار النقدة .

كل ذلك لا ينزل أبا تمام عن أحسانه فى عمق التفكير ، كما لا يذهب بحسناته فى دقة التصوير ، وله فيها آيات باهرات منها قوله :

ومُعَرَّسٍ للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنّةٍ وطفاء

نُشرتْ حدائقُه فصرْن مآلفاً لطرائفِ الأنواء والأنـداء
فسقاه مسكُ الطلِّ كافورَ الندى وانحل فيـه خيط كل سماء

وهو فى هذا يشير إلى ما يملأ الجو من عطر أثر المطر الخفيف ، وما على أوراق الزهر من ندى كأنه الكافور ، وإلى تساقط الأمطار كأنهـا خيوط السماء قد انحلت ، وفى مجموع هذا تصوير رائع لكنه يحتاج إلى تفكير جدي لتكشف عن إحسانه ؛ وهذا التصوير قد يوصلنا إلى الغموض ان بعدت الصور ، وربما حملنا التفكير على كثرة التأويل ، ومهما يكن من غموض بعض نواحيه ، وحمل المفكرين على كثرة التأويل ، فانه قد جعل الذين يريدون أن يستمتعوا بالمعني الرائع ، هائمين بلذة جديدة من إعمال الفكر ، وبذلك ظهرت خاصة نراها فى كثير من شعره ، هي كثرة الاحتمالات ووفرة التأويلات ، وأصبحت طائفة من شعره فى حاجـــة إلى الشرح والإيضاح ، ولذلك أشار العلماء إلى المشكل من أبياته ، فمن ذلك معنى بعيد فى قوله :

وَلِهَتْ ، فأظلم كلُّ شيء دونها ، وأنار منهـا كلُّ شيء مظلمِ

قال المرزوقي عنه : « لما جزعت لفراقها اشتد جزعها علي فأظلم كل شيء فى عيني سواها ومن دونها ، وبان لي ووضح من مكتوم أمرها ومكنون ودها لي ما كان مغيباً عني ومظلماً علي ؛ ويجوز أن يكون المعنى : ارتاعت لما أحست بالفراق وتولهت فألقت قناعها فأظلم كل شيء دونها لسواد شعرها فأنار كل شيء مظلم من بياض وجهها ، والأول أوضح وأجود »

وقال التبريزي : « وقد يؤدى لفظ الطائى معنى آخر وهو أن الأشياء أظلمت دونها أي غيرها ، وقوله وأنار منها كل شيء مظلم أى من حسنها تضيء الأشياء المظلمة » .

ومن ذلك قوله وفيه ثقافة واسعة :

طالَ انكاريَ البياضَ ولو عُمْـ مرتُ شيئاً انكرتُ لونَ السواد

يقول المرزوقي : «يحتمل هذا البيت وجوهاً : أحدها ماقاله الاعرابي لما استوصف حاله :

« كنت أنكر الشعرة البيضاء فصرت الآن أنكر الشعرة السوداء »

والثاني : إن عُمّرتُ شيئاً ، اسودّ من لوني وجلدي ما كان مبيضاً ، فانكرته ، وهذا كما قال العريان بن الهيثم لما سأله عبد الملك عن حاله فقال : « ابيضّ مني ما كنت احب ان يسودّ ، واسودّ مني ما كنت احب ان يبيضّ ... في كلام طويل ... ثم قال : وكنت في شبابي ابيض اللون زاهراً ، فصرت بعيد الشيب أسود حالكاً . »

والثالث : ان عُمّرتُ شيئاً أنستُ بالبياض وسكنت اليه حتى اكون منكراً للسواد ، انكاري الساعةَ للبياض » .

ومما يحتمل التأويل قوله مادحاً :

بالشِّعر طول إذ اصطكّت قصائده

في معشر ، وبه عن معشر قِصَرُ

وهو يحتمل تأويلين : احدهما ان الشعر يتسع مجاله بمدحك ويضيق بمدح غيرك ، يريد بذلك ان مآثره كثيرة ومآثر غيره قليلة ، والآخر انّ الشعر يكون ذا فخر ونباهة بمدحك ، وذا خمول بمدح غيرك ، فلفظة الطول يفهم منها ضد القصر ، ويفهم منها الفخر من قولنا طال فلان على فلان أي فخر عليه .

وقوله :

قد بلونا أبا سعيد حديثاً وبلونا أبا سعيد قديماً

ووردناه ساحلاً وقليباً ورعيناه بارضاً[1] وحميا
فعلمنا أنْ ليس إلا بشقٍّ النْ ـنفس صار الكريم يُدعى كريماً

فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان : احدهما انه اراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب (البئر) ، والآخر انه اراد بهما السبب وغير السبب ، فان الساحل لا يحتاج في ورده الى سبب (حبل) والقليب يحتاج في ورده الى سبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، لان حقيقة الساحل والقليب هي في غير المعنى الوارد في هذا الكلام .

وقوله مادحاً :

هنالك يُلتقى الجود من حيثُ قُطِّعتْ

تمائمُه ، والمجد مُرخًى الذوائب

واراد بتقطع التمائم للجود ، انّ محل الممدوح هو مألف الجود ومنشؤه ووطنه ، وقد يراد معنى آخر هو ان هذا الجود قد أُمنت عليه الآفات العارضه لغيره من المنّ والمطل والاعتذار أو غير ذلك ، لأنّ التمائم لا تقطع إلا عمن أُمنت عليه المخاوف .

فكل هذا التأويل دليل الغوص على المعانى ، وربما أدى هـذا الى الغموض وعدم تبيُّن المعنى الا بعد الروية ، فمن ذلك قوله :

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثامُ

يريد أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام .

---

(١) أول الغيث

الثقافة الواسعة :

والناظر فى كثير من معانية العويصة يجد أصلها فى ثقافته الواسعة فمن ذلك قوله :

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبرَّ يحرسه الدم

وفيه اشارة الى ما ورد عن العرب « القتل أنفى للقتل » وهى الجملة التي لا تلحق بقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة »

وآثار ثقافته الواسعة واضحة فى كل قصيدة من قصائده ، كأنما تأبى عليه معارفه إلا أن تطل على القراء فى أجلى بيان ، وبحسبك أن تنظر فى البائية التي قالها لفتح عمورية لترى ثقافته العربية الخالصة ، والإسلامية الحنيفية ، والعباسية المترجمة من ضرب الأمثال ، ورجوع إلى سنن الإسلام ومعرفة بالنجوم والأبراج والتاريخ وغير ذلك ، على أن للفلسفة والمذاهب والنحَل ، أكبرَ الأثر فى معانيه العويصة ، فكان مما تمثّله منها مع ما قدر عليه من حسن الصوغ خطوة جديدة هي مزجه بين الصنعة والفلسفة ، وجعل النقيضين متجاورين أحسن جوار ، وبذلك كان أول من رفع الحواجز بين الشعر والفلسفة ، فمن ذلك قوله الذي أوردناه من قبل [1] :

عُمْريُّ عظم الدينِ ، جهميُّ الهوى ينفي القوى ، ويثبت التكليفا

ومن ذلك استعماله للقياس المنطقي ، ولكنه قياس فني يورده فى الرثاء فيقول :

إن ريب الزمان يُحسن أن يهـ ـدي الرزايا إلى ذوي الاحساب

فلهذا يجف بعـد اخضرارٍ قبل روض الوهاد روضُ الروابي

(١) ص ٢٠

ويقول فى الغزل معللاً تخديد وجهه وما فيه من تجعد :

لا تُنكري منه تخديداً تَجلَّله فالسيف لا يُزْدَرى إن كان ذا شطب

ولعل هذا البيت من أروع ما يتعزى به الشيوخ اللاهون .

نواحٍ متعددة من فنه :

وإلى جانب ما مر من الكلام على فنه ، يجب ألاّ نغفل النواحي الكثيرة الباقية من صنعته وامتداد عبقريته ، فمن ذلك ما نرى من التزامه ما لا يلزم فى روي القافية ، وقد يكون بذلك قد ألهم المعرّي طريقته المعروفة فى (لزوم ما لا يلزم) وفيها يقول أبو تمام ملتزماً الدال مع الميم :

خدم العُلا فخدَمْنه وهي التي لا تخدم الأقوامَ ما لم تُخدم

فاذا ارتقى في قلة من سؤدد قالت له الأُخرى بلغتَ تقدم

ومثله قوله فى التزام الصاد مع الدال :

ولو جربتني لوجدت خرقاً يصافي الأكرمين ولا يصادي(١)

جديراً أن يُكرّ الطرف شزْراً إلى بعض الموارد وهو صادِ

ومن إحسانه فى صنعته ما عُدّ له من المطالع الحسنة التي تنكب فيها عن طريقة الأقدمين فقال في عمورية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجِد واللعب

ومثله مطلع قصيدته التي يذكر فيها خروج بابك الخرمي وظفر الخليفة به:

الحق أبلجُ والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

(١) الخِرْق : السخي أو الظريف . يصادي : يعارض . الشزر : الازورار . صادي : عطشان . وفي الديوان (ولو كشفتني) بدل (جربتني) ص ٨١ .

ومما جاء به فى مطالع الغزل الحسنة :

عسى وطن يدنو بهم ولعلما وإن تعتب الأيام فيهم فربما

ومن مطالعه الحسنة في الرثاء :

اصمَّ بكَ الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وكان من طريقته فى النظم أن يحسن التخلص حيناً كقوله :

يقول في قُومَسٍ صحبي وقد أخذتْ
منا السُّرى وخُطىٰ المَهْرية القُودِ
أمطْلِعَ الشمس تبغي أن تؤمَّ بنا
فقلتُ كلاَّ ولكنْ مطْلِعَ الجودِ

وهذا من بديع ما يأتى فى باب التخلص . ومثله في الحسن قوله يصف الربيع ويتخلص إلى المديح :

خلق أطل من الربيع كأنه خلُق الامام وهديُه المُتنشِّرُ
فى الأرض من عدْل الامام وجوده
ومن النبات الغض سُرْجٌ تَزْهَرُ
تُنسى الرياض وما يروّض فعْلهُ أبداً عَلَى مرّ الليالي يذكر(١)

وهو من ألطف التخلصات وأحسنها ، ومثله قوله فى مدح أبى دلف :

غيداء جاد وليُّ الحسن سنتَها فصاغها بيديه روضة أُنُفا
يضحي العذول عَلَى تأنيبه كلفاً بعذر من كان مشغولا بها كلفا
ودِّع فؤادك توديع الفراق فما أراه من سفر التوديع منصرفا

(١) المتنشّر : المنشور . يروّض : ينشىء الرياض أو يلزمها .

تجاهد الشوقَ طوراً ثم تجذبه جهاده للقوافي في أبي دلفا [1]

وقوله :

زعمتْ هواكَ عفا الغداةَ كما عفت منها طلول باللوى ورسوم

لا والذي هو عالم أن النوى أجل وأن أبا الحسين كريم

ما حلتُ سنن الودادولا غدت نفسي عَلَى إلفٍ سواكَ تحوم

وهذا خروج من غزل إلى أغزل منه .

وقد يعمد إلى الالتفات فلا يتخلص كأن يتكلم عن الغائب ثم يلتفت إلى خطاب نفسه فيقول :

يُري بالكعاب الرود طلعةَ ثائر وبالعِرمِس الوجناءِ غرة آيب

كأن بها ضغناً عَلَى كل جانب من الأرض، أوشوقاً إلى كل جانب

إذا العيس لاقت بي أبادلف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب

هنالك تلقى الجود من حيث قطعت تمائمه، والمجد مرخىٰ الذوائب [2]

فلما صار إلى مشافهة الممدوح خاطب نفسه ثم عدل عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره ، وهو التفات حسن .

وله فى المؤاخاة بين الألفاظ فى المباني قوله فى وصف الرماح :

مُثقَّفاتٌ سلبن العرب سمرتَها والروم زرقتها، والعاشق القُضُفا

---

(١) فى الديوان : يجاهد الشوق طوراً ثم ترجعه

مجاهداتُ القوافي في أبي دلفا

(٢) فى الديوان (المجد) بدل (الجود) . الكعاب الرود : البارزة النهد ، اللينة . العرمس : الناقة الشديدة .

فذكر لجانب كل لفظ ما يؤاخيه ، فالسمرة للعرب ، والزرقة الروم ، والقُضف للعاشق (١) .

وله فى مقابلة المفرد بالمفرد ، أي إيراد اللفظ فى صدر الكلام ثم إعادته فيما يحتاج إلى جواب ، قوله :

بسط الرجاء لنا ، برغم نوائب كثرت بهن مصارع الآمال

فذكر الرجاء فى صدر البيت وذكره أيضاً في عجزه بلفظ الآمال ، واستعمال اللفظة في معنى أختها يصح في المقابلة بينهما .

ومن تقسيمه الحسن المستوفي الأجزاء قوله :

جمعتْ لنا فرق الأماني منكم بأبرَّ من روح الحياة وأوْصَل

فصنيعةٌ في يومها ، وصنيعةٌ قد أحْولتْ ، وصنيعةٌ لم تُحوِلِ

كالمزن من ماضي الرباب فمقبلٍ متنظرٍ ، ومخيمٍ متهلل

ومن تقسيمه أيضاً قوله :

وموقف بين حكم الذل منقطع صاليه ، أو بحبال الموت متصل

فقصد أبو تمام الغلو فى وصف الموقف فقال إن الناس أحد رجلين إما ذليل عن مورده ، وإما هالك فيه ، أي أنه لا ينجو منه أحد ، وهذا من التقسيم الصحيح .

ومن مجال صنعته ترتيب التفسير فى تقديم المقدم وتأخير المؤخر ، وذلك بذكر معان تفسر ما قبلها بصورة مرتبة يراعى فيها تقديم المعنى الذى له

---

(١) كان أجمل بالبيت لو ذكر الشاعر (العشاق) جمعاً لأنه ذكر العرب والروم وكل منها جمع ، ولو ذكر (قضفها) أي دقتها لكان أوقع إذ ذكر (سمرتها) و (زرقتها) بإضافة كل إلى ضميره .

علاقة بالكلام المتقدم وتأخير المعنى الذى له علاقة بالكلام المتأخر ، وقد قال فى ذلك :

وكان لهم غيثاً ، وعلماً ، فمعدِم فيسأله ، أو باحث فيسائله

فقدم المعدم لمناسبته مع الغيث المتقدم ، وأخر الباحث لمجيء العلم بعد الغيث . ومثله قوله :

وماهو إلا الوحيُ أو حدُّ مُرهفٍ تُميل ظُباه اخدعيْ كلِّ مائلِ

فهذا دواء الداء من كلِّ عالمٍ وهذا دواء الداء من كلِّ جاهلِ

وله في توكيد المنفصل بالمنفصل قوله :

لا أنت أنت ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتولت الأوطارُ

وهذا من المليح النادر . وله فى التشطير قوله :

تدبير معتصم ، بالله ، منتقم ، لله ، مرتغب ، في الله ، مرتقب

وقوله :

نجوم طواليع ، جبال فوارعٌ غيوث هواميعٌ ، سيول دوافع

ومن إطنابه الحسن الرائع قوله :

زكيٌّ سجاياه تُضيف ضيوفه ويُرجِى مُرجّيه ويُسأل سائله

أراد أن يصفه بالكرم فوصفه بصفات متعددة فجعل ضيوفه تضيف ، ورجيه يُرجى ، وسائله يُسأل وهو إطناب حسن .

ومن التكرير الذي جاء فيه المعنى مضافاً إلى نفسه مع اختلاف اللفظ قوله :

نهوض بثقل العبء ، مطَّلعٌ به وإن عظمتْ فيه الخطوب وجلَّتِ

فالثقل هو العبء ، وإنما أراد المبالغة فى تحمل الأعباء .

ومن الاعتراض الجميل « وخير القول أصدقه » من قوله :

ردَدْتَ رونق وجهي في صحيفته ردَّ الصِّقالِ بَهاءَ الصارمِ الخَذِمِ

وما أُبالي، وَخيرُ القول أصدقُه، حقنت لي ماءَ وجهي أم حقنتَ دمي

ومن كلماته الجامعة التي لا يؤتى بمثلها إيجازاً قوله :

كم صارمٍ عضب أناف عَلَى فتى منهم ، لأعباءِ الوغى حَمَّالِ

سبق المشيبَ إليه حتى ابتزَّه وطنَ النُّهَى من مَفرِق وقَذالِ

وكلمة « وطن النهى » من الكلمات الجامعة وهي كناية عن الرأس وقلما يجاء بمثلها فى معناها مما يسد مسدها .

وبعد فإذا جمعنا كل ما مر بنا من الخصائص فى فن أبى تمام من محسنات لفظية ومعنوية إلى إكثاره من الاستعارة والتجسيم والتشخيص ، والرمز عن الاراء بالكنايات ، وحسن أداء ثقافته العلمية والفلسفية ، وما ابتكره من المعانى ، إلى جزالة اللفظ وشدة أسره ، وحسن رونقه استطعنا أن نتبين محله الرفيع فى الأدب العربي كشاعر ملهم ، وعبقري مجدد .

وما يضير عبقريته هذه ، الروية والإبطاء فى الصوغ والاجهاد للنفس، فقد قيل: «إن تسعة أعشار العبقرية تعب وعرق » ولكنها لا تكون عبقرية حقيقية إن خلت من الإلهام؛ وشاعرية أبى تمام لم تخل من هذا العنصر الكريم .

ونستطيع بعد هذه الجولة فى صنعة الشاعر أن ندرك أى معنى كان يقوم فى نفس أبى تمام حينما سأله خادمه الفتح عن دِعبل الخزاعي فقال له أبو تمام :« دعبل بن علي هو الذى يقول :

لا تعجبي يا سَلْمُ من رجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى »

كأنه أقام هذه الصنعة مقام النسب ، ولم يتعرض لما كان بينهما من تقاطع ؛ كل ذلك فى سبيل روعة الفن .

وندرك بعدئذ مغزى كلمة إسحاق الموصلي لأبى تمام حينما سمعه ينشد شعراً يشتد فيه على نفسه بالصنعة : « يا هذا لقد شققتَ على نفسك ، إن الشعر لأقرب مما تظن » .

المديح :

غنيَ ابو تمام ونال المكانة الرفيعة عند العظماء بفضل امادحه ، وهي اعظم شعره ، وقد قصد بها الخلفاء والأمراء ، وتكسب بها ، ولكنه لم يسفَّ ولم يستجد ولم يتبذل ، وكان من سعادة الرجل ان يقول فيه ابو تمام شعراً قوياً خالداً ؛ ولامادح شاعرنا صفات عامة وصفات خاصة :

اما العامة منها فما عرفنا من انواع صنعته وتفننه في الاستعارات والتشابيه واقتباسه من ثقافته الواسعة ، وعلوم عصره المتعددة .

واما الخاصة منها فما تتميز به كل قصيدة من مزايا تتعلق برجل له صفاته وسجاياه ، بحيث اننا نستطيع ان نحدد الشخصية التي قيلت فيها تلك القصيدة . واعظم امادحه قصيدته في فتح عمورية وقد حضر الموقعة مع المعتصم ، ورأى نصرة الاسلام وانهزام الروم ، وشهد عزة المنتصر وذلة المغلوب ، فوصف ذلك بابلغ اسلوب .

بدأ القصيدة بدءاً جديداً ، لم يقف فيها على طلل ، ولا تحدث عن خمر ، وانما عمد الى الحكمة فجعلها مستهل الكلام .

وكان شأنه في مطالع غيرها أن يقلد المتقدمين ، تارةً ، في المعاني البدوية من صفة الديار والحنين لاهلها الراحلين ، ثم ينتقل الى المديح اقتضابا او استدراجاً حسناً .

وكان تارة ثانية يعمد الى وصف الطبيعة او الخمر او الحكمة ثم يتخلص الى المديح ، وكان احياناً يهجم على المديح دون ان يقدم بين يديه توطئة توصله الى غرضه .

وانما اختار الحكمة وضرب الامثال مستهلا لمديح المعتصم فى عمورية، لجلال الموضوع ، وعظم الفتح لجال جولاته الرائعة فى ثقافة وصنعة وطبع ، وجاء بمعان رفيعة تربط اجزاء القصيدة ربطاً محكما ، مع قوة الاسر وجزالة الكلم ورصانة الاسلوب ، واتساق الافكار والتتابع المنطقي .

وهو في هذه ، كما فى غيرها ، ينفحك بالفوائد التاريخية ويعين لك الأحداث والاماكن ويذكر الاسماء ، ويسرد العادات الملتزمة ، والاخلاق المألوفة ، والمعتقدات السائدة ، ، ويظهر العواطف الدينية ، والعزة العربية ، ويقارن بين المعارك كموقعة عمورية وموقعة بدر ، فيوجد بينهما نسباً كريما ، ويبين عظم الفتح ، وكثرة السبي ، وتطور الحرب ، ويصف استعار الحريق ، ويصور الأماكن المهدمة ، وما عليها من القتلى ، ويدل على اعتقاد العامة بأصح الأزمان للحروب ، ويشير إلى عظم العمل الممدوح عليه فاعله ، ولا يخلى الكلام من تصوير للحياة الغابرة ، بدوية وحضرية ، ودلالات على الترف العباسي ، واللذائذ المستفيضة .

هذا إلى ما ينثر أثناء الكلام من حكم وأمثال وما يرتضيه من مبالغات في بعض الأحيان ، وما يأتى به من استشهادات واشارات الى ثقافات يونانية او بابلية او فارسية كالاسكندر وعلم النجوم ، كل ذلك فى تسلسل غالب ومنطق صائب وإحكام واحسان حمل الناس على ان يشهدوا له بالتقدم فى المديح

واماديحه في معظمها تؤيد دولة بني العباس ، وتثني على ساستهم ومكانتهم واعمالهم ، وان لم يخل الشاعر من هوى الى العلويين ظهر فى قصيدة قالها دون العشرين ، فيها :

جعلت هواي الفاطميين زُلفة إلى خالقي ما دمت أو دام لي عمر

ومنها في الدلالة على عمره :

وإن الذي أحذاني الشيب للذي
رأيتِ ولم تكمل لي السبعُ والعشر

وصفوة القول ان عبقرية ابى تمام ، وصدق لهجته الغالبة فى المديح ، وبعضاً من مبالغاته تظهر فى اماديحه ، ولن يعرفك عليها مثل دراستها فى نصوصها ، وقراءتها فى روية ، كالتي كان يأخذ بها ابو تمام نفسه ، فمن رائع مديحه قوله في المعتصم :

السيفُ أصدق أنباءً من الكتبِ ... في حَدِّه الحدُّ بين الجِد واللعبِ
بيضُ الصفائح لاسودُ الصحائف في ... متونهنَّ جلاء الشك والرِّيَب
فتحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به ... نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطب
فتح تفتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتبرُز الأرضُ في أثوابها القشُب
يا يومَ وقعةِ عمورية انصرفت ... عنكَ المُنى حُفَّلا معسولةَ الحلَب
أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صُعُدٍ ... والمشركين ودارَ الشركِ في صبب
وبرْزة (١) الوجه قد أعيتْ رياضتُها ... كسرى وصدت صدوداً عن أبي كَرِب
من عهد اسكندر أو قبلَ ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بِكْرٌ فما افترعتها كفُّ حادثةٍ ... ولا ترقَّتْ إليها همةُ النوب

(١) البرزة : الحيّه التي لا تظهر للرجال ، وقيل التي تظهر ؛ ومع كلٍ فهي ممتنعة . قيل إن كسرى حاول فتحها .

جرى لها الفألُ نحساً يومَ انقرة

إذ غودرتْ وحشةَ الساحات والرُّحَب

تدبيرُ معتصمٍ بالله، منتقمٍ لله ، مرتغبٍ في الله، مرتقب

لم يغزُ قوماً ولم ينهض إلى بلدٍ إلا تقدَّمه جيشٌ من الرُّعُب

لو لم يقدْ جحفلاً يوم الوغى لغدا من نفسه وحدَها في جحفلٍ لجب

رمى بك الله بُرْجَيْها فهدَّمها ولو رمى بك غيرُ الله لم يصب

من بعدما أشَّبوها واثقين بها والله مُفتاحُ بابِ المعقل الأشِب

وقال ذو أمرهم لا مرتعٌ صدَدٌ للسارحين وليس الوِردُ من كثب

أمانياً سلبتْهم نُجحَ هاجسها ظُبيُ السيوف وأطرافُ القنا السُّلُب

إن الحِمامَيْن من بيضٍ ومن سُمُر دَلْوا الحياتين من ماءٍ ومن عُشُب

عداكَ حرُّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سَلسالها الحَصِب

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصُرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلا عَلَى جسر من التعب (١)

إن كان بين صروف الدهر من رحِم

موصولةٍ أو ذِمام غيرِ منقضب

---

(١) يقول شوقي :

أُعِدتَ الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يألُه طلبا

فبين أيامك اللاتي نُصرْتَ بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم

صُفرَ الوجوه وجلّتْ أوجهُ العرب

الرثاء:

والناحية الثانية التي جود فيها هي هذه الناحية المشبوبة العاطفة، العميقة الشعور، ظهر فيها ابو تمام فى توجع مغرق، وتلهف شديد، ومبالغة معروفة عند غيره من قبل، لكنه كان اصدق فيها بياناً، وادل حزناً، فاذا كانت الشموس تأفل، والظلام يعم، والويل يأخذ بمخانق الناس، فى كلام سواه، دون ان نحس ان ذلك صادر عن اعماق النفس، ومن غير ان تشعر بصدق العاطفة، فقد كانت هذه المعانى عند ابى تمام اكثر تأثيراً في النفوس، حتى انها لتشعرنا باللوعة تحزّ فى قلبه حزاً، وبالحرق تلذع فؤاده لذعاً، فتهويله للخطب النازل، وتفجعه على الفقيد الراحل، ربما كان اثراً لما فى نفسه من الالم، وصدى لما يشعر به قلبه المرهف الشعور، واذا صح ان نفسه كانت متألمة، فان هذه المراثى لم تكن غير فرص للابانة عن عواطفه، وصور لخبء نفسه، الدفين عن عيون الناس.

وقد كان يعتمد على التصوير والتلوين فى مراثيه ولا يخليها — الا قليلاً — من حكم وامثال وافكار دينية، تستلزمها المصيبة فى عظم هولها، وكان اعتماده فيها على التهويل اكثر من عنايته بالمواعظ والتأسي، ولذلك كان يبتديء المراثي بفداحة الخطب وعظمه، وهو اذا شارك غيره من الشعراء فى تعظيم المصاب الذى يصح ايراده لكل فقيد، فانه لم ينس ان يورد فى مراثيه صفات

خاصة بالذين رثاهم، بحيث نتعرف الى خصائصهم، او نستفيد شيئاً عن اعمالهم البارزة في حياتهم ، وفوق هذا تجد صنعته تزين ما يقول .

ولعل افضل مراثيه ما قاله في محمد بن حميد الطوسي الذى بعث به المأمون لتأديب بابك الخُرَّمى سنة ٢١٤ هـ ، وقد ثبت فى القتال حتى لم يبق معه الا رجل واحد ، ثم قتل شهيداً وفى ذلك يقول ابو تمام :

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ
فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ(١)

تُوفِّيت الآمالُ بعد محمد
وأصبح في شُغْل عن السَفر السَفْر

وما كان إلا مالَ من قلَّ مالهُ
وذُخراً لمن أمسى وليس له ذُخر

وما كان يَدري مُجتدي جودِ كفِه
إذا ما استهلتْ أنه خُلِق العُسْر

ألا في سبيل الله مَنْ عُطِّلتْ له
فجاج سبيلِ الله وانثغرَ الثغر

---

(١) قوله (كذا فليجل الخطب) يفيد ظاهر لفظه أن كل خطب يجب أن يكون كهذا إذ لا يقال (كذا فليكن) إلا فى السرور ؛ وإنما يريد أبو تمام تهويل الخطب وأن كل خطب دون ذلك لا يعد خطباً .

فتىً كلَّما فاضتْ عيونُ قبيلة
دماً ، ضحكت عنه الأحاديث والذكر

فتىً دهرُه شطران فيما ينوبُـه
ففي بأسه شطرٌ وفي جوده شطر

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً
تقومُ مقامَ النصر إن فاته النصر

وما مات حتى مات مضرِب سيفه
من الضرْب واعتلَّت عليه القنا السمر

وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردَّه
إليه الحفاظُ المُرُّ والخُلُق الوعر

ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنَّما
هو الكفرُ يومَ الرَّوْع أو دونَه الكفر

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

غدا غدوة والحمدُ نسجُ ردائه
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

تردَّى ثيابَ الموت حُمراً فما دجا
لها الليلُ إلا وهْي من سُندس خُضر

كأنَّ بني نبهانَ يومَ وفاته

نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدر

يُعزَّون عن ثاوٍ تُعزَّى به العُلا

ويبكي عليه البأس والجود والشعر

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى

ويَعمُرُ صرفَ الدهر نائلُه الغَمْر

عليكَ سلامُ الله وَقْفاً فإنني

رأيت الكريم الحرَّ ليس له عمر

وهي من اخلد الشعر ، حتى قال الامير ابو دلف العجلي لابي تمام عنها « وددت والله أنها لك فيّ ... إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر » .

ومراثي أبي تمام قليلة بالنسبة لامادحه ، وكثيرون اولئك الذين نعموا بمدحه أحياء ولم ينعموا برثائه أمواتاً ، كالمأمون والمعتصم وقد يكون ذلك لأن تهنئة متقلد الخلافة ـ كالواثق بعد المعتصم ـ أحب إلى النفس من ذكر الموت والبلى ؛ وما زال الحي أفضل من الميت ، كما يقول المتشبثون بأذيال الحياة ، ومن أجل ذلك عزى بالمعتصم وهنَّأ الواثق في وقت واحد .

أما أحباؤه وأنسباؤه وأصدقاؤه فهم الذين كان لهم القسط الوفر من رثائه ، وهنا تتجلى حقيقة الود والوفاء وأصل العاطفة ، التي جعلت منه « نواحة » مبدعاً . فتراه يبكي بقلب منفطر حينما يرثي ولده أو أخاه ، ويبكي بفكر معجب، ورجولية متماسكة، حينما يرثي عظيماً من العظماء .

ونستطيع بعد هذا أن نعلم الباعث الذي جعل البحتري يقول: « أبو تمام مداحة نواحة » .

الوصف :

ولقد مر أن أبا تمام شاعر مصور، رائع التصوير ، وأنه كثيراً مايعتمد على التجسيم والتشخيص فى إظهار معانيه وإبراز تصاويره ، وكانت الصنعة البديعية أبرز شيء فى هذه الصور، إذ تلونها بألوان زاهية تحببها إلى النفوس، استمع إليه وهو يصف الربيع فيقول وفيه صنعة وتشخيص ظاهران :

رقتْ حواشي الدهر فهي تَمُرُّ مَرُ ... وغدا الثرى في حليه يتكسَّر

نزلتْ مقدَّمة المصيف حميدةً ... ويدُ الشتاءِ جديدة لا تنكر

فهو يجعل أطراف الدهر وحواشيه رقيقة رجراجة ، ويخيل إليه أن الثرى عروس أثقلتها الحلي فهي تتثنى وتتمايل ، وأن هذه المقدمة اللطيفة للصيف، وهي الربيع حميدة مرضية ، بعد أن كان الشتاء ذا نعمة لا تجحد ؛ ويسترسل الشاعر فى وصف الربيع فيصور ويلون ويشبه ويقول :

يا صاحبيَّ تقصَّيا نظريكما ... تريا وجوهَ الأرض كيف تصوَّر

تريا نهاراً مشمساً قد شابَه ... زهرُ الرُّبى فكأنما هو مُقمر

من كل زاهرةٍ تَرَقْرَقُ بالندى ... فكأنها عينٌ إليك تحدِّرُ

تبدو ويحجبها الجميم كأنَّها ... عذراء تبدو تارةً وتخفَّر

حتى غدت وَهَداتها ونجادها ... فئتين في حلَلِ الربيع تبختر

مصفرَّةٌ محمرَّةٌ فكأنها ... عصبٌ تيمَّنُ في الورى وتمضَّرُ

من فاقعٍ غضّ النبات كأنه دُرٌ يُشقَّق قبلُ ثم يُزعفر

أرأيت إلى هذا الوصف التصويري الرائع للنهار الذي تختلط فيه أشعة الشمس بالزهر فتحسبه ليلاً مقمراً ، ولعيون الزهر التي يترقرق فيها الندى ، وكيف تبدو ثم يحجبها النبت الكثير فتخالها بكراً تختفي وتظهر ، ولتلك الملابس التي تختال فيها النجاد والوهاد ، ولتلك الألوان المختلفة التي تشبه عصائب اليمن الصفر ، أو المضرية الحمر ، أو مايثقب من الدر .

واستمع إليه بعدئذ يصف الشباب ويذكر لك شيئاً من الدور والتسلسل الفلسفي في ثالث الأبيات إذ يقول :

أصبحت روضة الشباب هشيماً وغدت ريحه البليل سموما

شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثُكلاً صميماً

يستثير الهمومَ ما اكتنَّ منها صُعُداً وهي تستثير الهموما

وهكذا تجد أبا تمام يصف كل مايخطر للشاعر أن يصفه من طبيعة وحرب ، وحريق ، وخيل ، وإبل ، ونساء ، وغلمان ، وشيب ، وشراب ، وكان حيناً يفرد للوصف قطعاً أو أراجيز أو قصائد خاصة ، وآناً يدمج الوصف في صلب القصيد .

وما كان يخلي في هذا أو ذاك أوصافه من عمل عقلي ، قد يحدُّه عن الانطلاق في سماء الخيال كما يظن بعضهم ، ولكنَّ في كنه هذا العمل تسريحاً للخيال وذهاباً إلى الأعماق من الفكر ، ذلك أنه كان يقلب الصورة فما يزال يتناولها حتى يأتي على كل ما يمكن أن يوجد فيها من معنى ، وهذا عمل عقلي وخيالي في وقت معاً ؛ انظر إلى وصف الحريق كيف قلَّب الفكر فيه واستوفى المعنى فقال :

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يشُلُّه وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأنَّ جلابيب الدجى رغبت عن لونها ،أو كأنَّ الشمس لم تغب
ضوءٌ من النار والظلماء عاكفةٌ وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىً شحِب
فالشمس طالعةٌ من ذا وقد أفلتْ والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تجب

فهو لم يكتف أن يقول للمعتصم إنك جعلت الليل نهاراً ، واتخذت صبحاً من اللهب يطرد الظلام ، حتى عاد فقال كأن ثياب الليل الدكن قد كرهت لونها الأسود ، أو كأن الشمس ما زالت ماثلة في السماء ، وعاد وتوسع فى المعنى فقال إن هذا نور ولكن مصدره النار فى ظلمة شاملة للكون ، وإن هذه الظلمة مصدرها دخان يرتفع فى صباح شاحب اللون .

فهذا التقليب للمعنى لم يدع الخيال فيه فكرة لم يستوفها بيانه ، ولا سبيل لذكر أماكن إبداعه في الوصف ، وإحسانه فى الرصف ، وقراءة كثير من نصوصه خير مرشد لخصائص وصفه إذ تقفنا على كثير من الغريب ، وشيء من الغموض ، عرفناه فى غير هذا الموضع أيضاً .

وإذا كان الجاحظ من أقدم مَن وصف الكتاب فى النثر ، فإن شاعرنا من أقدم من وصف القلم وصفاً مجسماً مشخصاً فى الشعر ، فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير :

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته تُصاب من الأمر الكُلَى والمفاصلُ
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكب وأعجمُ إن خاطبته وهو راجل

وكان من سبل الوصف عند أبى تمام أن يجعله توطئة لأمر ينتقل إليه ، وله فى هذا ناحية أبدع فيها وكان السابق إليها ، وهي ناحية الاستطراد ، ومعنى ذلك أن يوهم السامع أنه يريد وصف شيء وهو يريد شيئاً آخر .

من ذلك أنه بدأ قصيدة وصف فيها الفرس ، حتى إذا انتهى إلى وصف حافره قال : إنه من صخر تدمر ؛ ثم فاجأ القارئ وقال : أو هو من وجه المهجو فلان ، فهذه القفزة استطراد تبعه غيره فيه فقال أبو تمام :

وسابحٍ هطِل التعداء هتَّانِ ... عَلَى الجراء أمينٍ غير خوانِ
فلو تراه مُشيحاً والحصى زِيَمٌ ... بين السنابك من مثنىً ووحدان
أيقنت إن لم تَثَبَّت أن حافره ... من صخر تدمرَ أو من وجه عثمان

وتبعه البحتري في قصيدة يصف فيها الفرس مطولاً ثم هجا فقال :

وأغرَّ في الزمن البهيم محجلٍ ... قد رحتُ منه عَلَى أغرَّ محجل
ما أن يعاف قذىً ولو أوردته ... يوماً خلائق حمدويه الأحول

وحينما لاموا البحتري لاحتذائه في شعره صنع أبي تمام قال : « أيعاب عليّ أن أتتبع أبا تمام وما عملت بيتاً قط حتى أخطر شعره في بالي ! » ولكن البحتري كان قد أسقط بيت الهجاء من ديوانه وان أثبته كثير من النساخ (الصولي ٧٠) .

الحكمة :

تجمعت ثقافة أبي تمام المتعددة ، وتجاربه على الأيام ، وتفكيره في شؤون الحياة ، فكانت حكمة رائعة ، عذبة الصوغ ، محكمة الصنع ، فنثرها في شعره ما بين مديح ورثاء ، ووصف ونسيب ، فلم تكد تخلو قصيدة له من فكرة بارعة ، أو حكمة رائعة ؛ استمع إليه وهو يتحدث عن جيش المعتصم وقد ترفع عن المادة واستهدف الفتح فقال :

إن الاسودَ أُسودَ الغاب همتُها ... يومَ الكريهة في المسلوب لا السَّلَبِ

وأصغ إليه يحدثك عن تجاربه في الأيام بعد أن خبر حلوها ومرها وهو يقول:

لقد جربتُ هذا الدهر حتى أفادتني التجارب والعناء

فلقد علمته التجارب أن من البلاء مايكون نعمةً، ومن النعم مايكون بلاءً، فكأنما يشير إلى قول الله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» (البقرة - ٢١٦) كأنه يشير إلى هذا حينما تملي عليه ثقافته وتجاربه وتفكيره قوله:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالتُخَم(١)

ورأى الأيام حرباً على الكرام، تنالهم بالأسواء، ويعتصمون بالعزة والكرامة والإباء فقال:

لا تُنكري عَطَل الكريم من الغنى

فالسيلُ حربٌ للمكان العالي

وساءه أن يتنكر الصحاب بعضهم لبعض، بسبب خير يصيبه فريق دون آخر فقال:

أولى البرية طراً أن تواسيَه

عند السرور الذي واساك في الحزَنِ

إن الكرام إذا ما اسهلوا ذكروا

من كان يألفُهم في المنزل الخشِن

---

(١) يقول الامام البوصيري في قصيدته البردة:

واخشَ الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شرٌ من التخم

وعز عليه أن تكون الأخلاق الاجتماعية بين الأصحاب لا تقوم على روية وأدب فقال :

مَنْ لي بإنسان إذا أغضبتُهُ
وجهلتُ كان الحلم ردّ جوابهِ
وإذا طربتُ إلى المُدام شربتُ من
أخلاقهِ وسكرتُ من آدابهِ
وتراه يُصغي للحديث بسمعه
وبقلبه ، ولعله أدرى بهِ

ورأى ما يكون بين الأدباء والعلماء من تقاطع ، فجعل الأدب نسباً يؤلف بين ذويه وأرسل لعلي بن الجهم — صديقه — يقول له من قصيدة :

إن يُكْدِ مُطَّرَف الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد[1]
أو يختلفْ ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمام واحد
أو يفترقْ نسبٌ يؤلّفْ بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وآلمه أن ينهش الحسد قلوب الناس ، وان كان فيه بعض الخير للمحسود إذ ينشر فضله ، فعمد إلى القياس المنطقي فوجد الطيب لا ينتشر عرفه إن لم تنل منه النار فقال :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طويت أتاح لها لسانَ حسود

(١) أي ان لم يكن الأخاء الحديث بين الناس مثمراً ينتهي إلى الخير فنحن نرجع إلى أخاء قديم صميم .

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ما كان يُعرف طيبُ عرفِ العود

ورأى الدنيا لا تعطي بالشمال حتى تأخذ باليمين ؛ وأنّ دون الخير شراً كثيراً ، ودون الراحة تعباً متواصلاً ، فليحتمل الانسان المكروه ليبلغ ما يريد ؛ ثم رأى في الاغتراب صقال الرجال ، فقال واعتمد على المقابلة والقياس :

ولكنني لم أحوِ وفراً مجمّعاً ففزتُ به إلا بشمل مبدَّدِ
ولم تعطني الأيام نوماً مسكّناً ألذُّ به إلا بنوم مشرّد
وطُول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وهكذا نرى أثر الثقافة ، والعقل ، والتجارب ، في حكمة أبي تمام ؛ وإلى هذه المنابع الثلاثة للحكمة ، شيء آخر نخصه بالذكر وان لم يكن مستقلاً عن هاتيك الموارد ، هو ترفعه عن الهجاء ، وإرسال الحكمة في مورد التعريض ، ولقد أبت عليه نفسه أن يهجو بعض من كان يحظى بمدحه ، فعرّض به في حكمة ما تزال جديدة على الدهر :

إذا جاريتَ في خلق دنيئاً فأنتَ ومن تجاريه سواء

وإنها لحكمة يقولها كل مترفع عن وضيع :

رأيتُ الحر يجتنب المخازي ويحميه عن الغدر الوفاء

ويرى أن الصبر على الشدائد لا يطول إذ لا بد لكل شدة من زوال ، فقال :

وما من شدةٍ إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء

وأما الخير عنده ففى الحياء ، وهو القائل :

يعيش المرء ما استحيا بخيرٍ ويبقى العود ما بقي اللِّحاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وينتهي إلى موعظة يستمدها من الدهر وكرم الخلق فيقول :

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تستحيِ فاصنع ما تشاء

ولقد أكثر من الحكمة وأبدع وأربى ما قاله فيها على المائتين ، وتبعه فى كثير من معانيه شعراء عظام كأبي الطيب والمعري حتى قيل : «أبو تمام والمتنبي حكيمان ، وإنما الشاعر البحتري» .

الفخر :

كان أبو تمام يجد مادة واسعة للفخر بعبقريته ، وأُرومته ، وشخصيته ، وهو ، ككل شاعر ، مسوق لأن يقول شيئاً يقل أو يكثر فى تثبيت قيمته وفرض احترامه ، فكان إذا نظر فى شعره وفى أشعار المتقدمين أدرك الشأو الذي بلغه ، والآفاق التي عجز عنها السابقون ، ولذلك ناقض زهيراً كما مر وقال عن قصائده :

يقول من تقرع أسماعه كم ترك الأول للآخر

ويقول عن قصيدة ثانية فى مدح الواثق بالله :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون
إنسية وحشية كثرت بها حركات أهل الأرض وهي سكون
أحذاكها صنع الضمير يمده جفر إذا نضب الكلام معين (١)

(١) جفر : بئر . احذاك : اعطاك

وله فى اطراء عبقريته تحليق ، من ذلك أن محمد بن الهيثم أعطاه حلة فمدحه أبو تمام وقال له إنه سيكسوه كسوة أرفع وأخلد :

سوف أكسوك ما يعفّي عليها من ثناء كالبُرد برد الصناع
حسنُ هاتيك في العيون ، وهذا حسنه فى القلوب والأسماع

وفي هذا وغيره دليل على إعجابه بعبقريته ، وبأماديحه بوجه أخص ؛ وكان يعطف فخره بأرومته ، على طيء وفيها كرم وشجاعة وشرف ، فيفتخر بسجاياها ، ويباهي برجالها ، ويرتفع بالولادة فيها فيقول :

أنا ابن الذين استُرضع الجودُ فيهمُ
وسُمِّي فيهمْ وهو كهل ويافعُ
سما بيَ أوسٌ ، فى السماح ، وحاتم ،
وزيد القنا ، والأثرمان ، ونافع (١)
نجوم طواليعٌ ، جبال فوارعٌ ،
غوث هواميع ، سيول دوافعُ

ويفتخر بشخصيته الجبارة فيقول لمحمد بن يزيد الذي تعرض له بالهجاء :

أطلتَ روعك حتى صرتَ لي غرضاً
قد يقدم العَيْر من ذعر عَلَى الأسد (٢)

---

(١) رجال من طي مشهورون . (٢) قيل إن حمار الوحش إذا شم ريح الأسد رمى بنفسه عليه . وفى رواية ثانية أنه قال لابن المعذل :
أقدمت ويلك من هجوي على خطر كالعير يقدم من خوف الأسد

الغزل :

وأبو تمام ذو عاطفة كالرجال ، ولكنه صاحب عقل ورصانة كالحكماء ، فغلبت هذه على تلك ، وإذا به فى الغزل لا يعد شيئاً إلا أن يقتنص معنى يقوم على تفكير في مقطوعة صغيرة لا تبلغ القصيد ، فهو يعجبك إذ تسمع إليه قوله الحكيم :

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ فى الأرض يألفهُ الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

ولكنك إذا رحت تسأله عن حبيبه وعواطفه وخلجات قلبه، أورد لك فهرساً فى الزفرات والعبرات لم تجد وراءه عاطفة عاشق ، ولا حنين ولهان، ومهما يبدأ بالغزل ويصف من وقوفه فى الرسوم، ويستنطق الآثار والديار ، ويقلد الماضين في كلام بدوي أو حضري ، فلن تسمع وراء ذلك خفقة فؤاد ملوع بالهوى ، وقد تكون الأيام شغلته عن الحب ، وقد يكون الغنى والجاه والرصانة والجد قد صرفته أن يكون بارع الغزل مشهور الأمر فيه ، على أن شيئاً من حوادثه فى الهوى قد عرف ، فاختلط بما روي عن أبي نواس ، ولن تحتاج إلى كبير عناء للحكم على غزل أبى تمام ، لانه ليس من القوة بحيث ترفع رتبته عن أن يكون متكلفاً أو مصنوعاً ، ولعل من أحسن ماقال في الغزل قوله :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد

وعاد قتاداً عندها كل مرقد

وأنقذها من غمرة الموت أنه
صدودُ فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً موردّاً
من الدم يجري فوق خدٍّ مورد
هي البدر يُغنيها تودُّدُ وجهها
إلى كل من لاقت وإن لم تَودد

الهجاء والعتاب :

وقد قيل عن أبي تمام « إنه كان لا يجيب هاجياً ، لأنه كان لا يراه نظيراً ، ولا يشتغل به » أي أنه لا يريد أن يجرى في المجالات الوضيعة المخزية ، ومع ذلك فنحن نقرأ له شيئاً من السباب والشتائم التي صبها على من هجوه حسداً وظلماً ، كأنه قد ضاق بهم ذرعاً ، ولا نرى له هجاء فى غرض سام ؛ ولا في ناحية سياسية ، وقد كان فى عصره شعوبيون وخوارج ثائرون ، وكانت الشيع والاهواء تطلق ألسنة الشعراء فى العصبيات المختلفة، وقد بعد أبو تمام عن هذا لأن له فى كل قطر صديقاً أوأميراً يقصده ،ولأنه لا يريد الاستكثار من الاعداء ، على أنه لم يخل من إظهار شماتة وتعريض ، حين قتل الافشين بابك الخرّمي .

وانا لنتساءل لو أن أبا تمام أطلق للسانه العنان ، فماذا عساه أن يقول غير ما نقرأ له من سباب وإفحاش فى القول السهل، على أنه كان يرى الصيانة أفضل فى كثير من المواضع ، أو أنه لم يكن ليشغل نفسه ويملأ وقته بقول

إذا صرفه فى ما هو خير كان أفضل وأسلم ، فمن أخف هجائه قوله فى مساوىء أحدهم :

مساوٍ لو قسمن عَلَى الغواني لما جُهزن إلا بالطلاق

ويقول :

دنسٌ تدبر أمرَه شيمٌ له شُكسٌ يدبر أمرَهن اللومُ

ومنازلٌ لم تبق فيها ساحةٌ إلاّ وفيها سائل محروم

وكان يكثر من وصم مهجوه باللؤم وخسة الخصال ، وهجاؤه على الجملة أفضل من غزله من حيث الصنعة وإحسان الصوغ .

ولجانب الهجاء عتاب رقيق لطيف ، يذكر فيه من يبطىء عليه بالكرم أو بالأمر المراد ، ويغمز من جانب المعاتب غمزاً رقيقاً ،وهو غرض لا بد للشاعر من أن يجري لسانه فيه إذ قد تعرض له فى الحياة أمور تستلزمه ، فمن ذلك قوله :

وأخٍ لي أملىٰ عليه اختلاط الد دهر طول التقليب والتعريف

أصلحته لي المروءة حتى أفسدته استطالة المعروف

ليس جدع الأنوف جدعاً ولكن تيه من تصطفيه جدع الأنوف

رجعته إلى الله تعالى :

ولقد كانت لأبي تمام رجعات إلى الله تعالى ، بعد اعتكار الأيام بالآثام، فكان ينظر فيما قدم وأخر ، فيخاف ويرجو ،ويجعل أمامه قول الله تعالى :

« إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشركْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً » (النساء ٤٨) ، ويتمثل أمامه قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد » (رواه مسلم) .

وفى ذلك يقول راجياً خائفاً :

أخاف إلهي ثم أرجو نواله
ولكنَّ خوفي قاهرٌ لرجائيا
وإني جدير أن أخاف وأتقي
وإن كُنت لم أُشركْ بذي العرش ثانيا

ويقول في التأهب للرحيل والحساب :

تُلقِّحُ آمالاً وترجو نِتاجها
وعُمْرُك مما قد ترجيه أقصرُ
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه
وليلته تنعاك إن كُنتَ تشعر
تطهَّرْ وأَلحق ذنبَك اليوم توبةً
لعلك منه إن تطهَّرْتَ تطهر
وشمِّرْ فقد أبدى لك الموت وجهه
وليس ينال الفوزَ إلاّ المشمِّرُ

قواعده فى النظم

رأينا أبا تمام يجول فى آفاق الشعر جولات عبقري صناع ملهم ، ولقد كانت له طريقة فى النظم أجملها للبحتري ناصحاً بقوله : «تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة فى الأوقات ، أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أيادٍ فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه ، وتقاض المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين » .

« وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى » .

محاسبة أبي تمام بمقياسه :

إذا كان الناصح بأمر أحقّ الناس بالتزامه ، فجدير بنا أن نطالب أبا تمام بما نصح به للبحترى ، ولكن النصح فى غالب الأحيان لا يقتضي التقيد بالنصيحة ، لأنها المثل الأعلى ، والبشر يميلون عنه ويتفاوتون فى ذلك

كثيراً أو قليلاً ، وعلى هذا فإن أبا تمام قد خرج عن التزام وصيته في أمور: منها أنه كان « يتقاضى المعانى » ولكنه لا « يحذر المجهول منها » فقد كان أحب شيء إليه أن يأتي بالبعيد الغريب الذى لم يؤلف من المعانى ، ويؤثر منها مالا يعرفه الناس ، وهذا مذهب جديد فى معانيه ؛ وقد أداه إلى نتائجه الغريبة غير المألوفة كونه كثير التتبع للاستعارات ، والمكنيات ، المشخصات والمجسمات منها بوجه أخص ، فمن ذلك قوله :

رقيقُ حواشي الحلم لو أنَّ حلمَه بكفيكَ ما غاليتَ في أنه بُرْدُ

فجعل الحلم رداءً رقيق الحواشي ؛ وهي صورة غريبة واستعارة عجيبة بالنسبة للأدب العربي الذى كان يتخيل الحلم كالجبال ، فقد كان إذا وُصف الحليم قيل عنه مثل قول الفرزدق :

أحلامُنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جِنّاً إذا ما نجهل

ولكن الحضارة التي عاش فى ظلالها أبو تمام أخرجته عن الصور القاسية إلى الناعمة ، وعن البداوة إلى الحضارة ، فكان هذا الفتح الجديد غريباً عن المألوف (١) ؛ ومثله في غرابة الصور والمعنى قوله :

فهو غضُّ الإباء والرأي والحز م ، وغض النوال ، غض الشباب

معنى غض الإباء وغض الرأى فى المديح ، إلى جانب غض الشباب والنوال ؟

وسنرى أشباه هذا فى ما آخذه عليه العلماء بالشعر .

ونصح البحترى «ألا يشين شعره بالألفاظ الزرية» ، ولكنه نفسه لم يستطع أن يتبع هذه القاعدة لأن المعنى الجيد الذى ينشده ربما لم يستقم له إلا في

(١) الفن ومذاهبه ١١٩

الألفاظ المعيبة، وربما كان المعنى معلقاً بلفظ مستغلق أو مستنكر أو غريب، فمن ذلك قوله يصف المطايا بأن علفها وطعامها في سيرها هو السير والركض فقط :

إرقالُها يَعضيدُها ، ووُسيجُها سَعدانُها ، وذَميلُها تَنُّومُها

والإرقال والوسيج والذميل أنواع من السير ، واليعضيد والسعدان والتنوم أنواع من النبت .

وربما أوقعه فنه وصنعته في ألفاظ لا تستساغ كهذا الجناس الذي في قوله :

ليالينا بالرقمتين وأهلها

سقى العهدَ منك العهدُ والعهدُ والعهدُ

أراد سقى أيامنا التي عهدناك عليها عهد الوصال ، وعهد اليمين التي حلفنا ، والعهد الأخير هو المطر (١) .

وكان إذا « عارضه الضجر » لم « يرح نفسه » ، وكان يعمل الذهن ، ويجهد النفس حتى تظهر عليه آثار التكلف في المعاني والألفاظ ، فمن ذلك أنه أراد أن يأتي بمثل معنى أبي نواس : « كالدهر فيه شراسةٌ وليان » فأخذ يتقلب يميناً وشمالاً كأن الحرّ قد بلغ منه مبلغه ، ثم قام كأنه قد انطلق من عقال وقال :

شَرُستَ بل لِنتَ بل قانيْتَ ذاك بذا

فأنت لا شكَّ فيك السهلُ والجبلُ (٢)

---

(١) الموشح ٣١٨ ، ٣٢٣ (٢) قانيت : خلطت ؛ وفي رواية قارنتَ

وهذا البيت ظاهر التكلف ، ينم عن حال أبي تمام حين نظمه ؛ وقد روي أن اسحاق الموصلي سمعه ينشد من شعره المتكلف فيه فقال له : « ياهذا لقد شددت الشعر على نفسك وما أشد ما تتكيء عليها فيه » (١) .

وربما أفسد معانيه التكلف ، فغمضت لتقديم أو تأخير ، أو عدم إحسان في الصوغ ، بسبب قهر النفس على الشعر كما ترى في قوله :

هُنَّ عوادي يوسفٍ وصواحبُه
فعزماً فقِدْماً أدركَ الثأرَ طالبُهْ

يريد ان النساء اللواتي عذلنه على سفره — قاصداً عبد الله بن طاهر في خرسان — ليس لهن رأي ، وقديماً صرفن يوسف ، فاتركهن وامضِ على عزمك

وقوله :

مستسلمٌ لله سائسُ أُمةٍ بذوي تجهضُمِنا له استسلامُ

يقال تجهضم الفحل اذا علا اقرانه ، وبعير جَهْضَم الجنبين أي رحبُهما . ففي البيت تكلف بغيض .

وكثيراً ما يكون تكلفه للصنعة سبباً في فساد معانيه وسخفها كما ترى في تكلف الطباق بقوله :

لعمري لقد حرَّرْتَ يوم لقيته لو أن القضاءَ وحده لم يُبَرَّدِ

وهو فوق هذا لم « يعتبر شعره بما سلف من الشعراء الماضين » ولا نظر في ما استحسنه العلماء فقصده ، ولا في ما تركوه ليجتنبه ، وانما جعل

---

(١) الموشح ٣٢٧ .

ذوقه وعبقريته مقياس الاحسان ، ودليلا على الرشد ، فسقط فى كثير من الاماكن؛ اذ متى كان العرب يستسيغون مثل قوله :

أيا مَنْ شفَّني فصبرتُ حتى ظننتُ بأن نفسي نفس كلب

او يجيزون لحضري مترف ان يقول مثل كلام البداة الجفاة وهو يصف ظبية :

تقرو بأسفله رُبولا غضةً وتَقيل أعلاه كِناساً فَوْلفا

« اراد ملتفاً ، والانسان يقرو الارض اذا سار فيها ينظر حالها وامرها ، والرُبول جمع رَبل وهو نبات يصيبه برد الليل ونداه فينبت ، والكِناس مَوْلِج للوحش من البقر والظباء تستظل فيه » .(١)

ثم متى كانوا يقبلون ان يترخص فى الشعر الحضرى رخصة كريهة فتستعمل « الذ » بدل « الذى » عند شاعر صاحب روية وامهال فيقول :

أدنيتُ رحلي إلى مدنٍ مكارمَه إلي يهتبلُ الذْ جئتُ اهتلُ

او ان يتكلف القافية لا لمعنى يستفاد كما فى قوله : :

كالظبية الادماء صافت فارتعت زهر العرار الغض والجثجاثا

« وليس فى وصف الظبية بانها ترتعي الجثجاث كبير فائدة ، لان الظبية انما توصف باحسن احوالها ، كأن يقال انها تعطو الشجر ، لانها تكون حينئذ رافعة رأسها ، وتوصف بان ذعراً يسيراً قد لحقها ، وأما ان ترتعي الجثجاث فلا فائدة منه ، وهذا نبات ليس من المراعى التي تؤثر على غيرها » (٢)

وليست الغاية من هذا ان نستقصي هنا معايب شعره ، فانها اوسع

(١) الموشح ٣١٠ (٢) الموشح ٣٢٢

من ذلك وامد آفاقاً ، واكثر تنوعاً ، وسنفرد لبعضها باباً خاصاً ، لولا اننا نحب ان نشير هنا الى انه كان بعيداً عن التزام وصيته ، وان حريته فى فنه كانت اكبر من ان تقيدها وصية او قاعدة ، وانه لم يكن ليبالي اذا استقام عنده البيت ، ان يستقيم عند غيره ، فهو وحده المقياس الفني ، وعبقريته اجلّ من ان تخضع لما تواطأ عليه الناس فى الفن والادب والمألوف من الكلام .

آراء الأدباء فيه

اختلفت آراء الأدباء والعلماء في قيمة أبي تمام ، ولا سبيل إلى إحصاء ما جاء به المتقدمون والمتأخرون ، والناظر فى مجموع ذلك يستنبط رأيين أحدهما ازدراء شعره ؛ وثانيهما إكباره وإحلاله المحل الأول بين أدباء العربية فى قديم الدهر وحديثه ؛ وليس فى واحد منهما عدل كامل ولا إنصاف مبرأ، وأبو تمام كشاعر كبير أجاد وسقط ، وأصاب وأخطأ ، شأن العباقرة، وليس من الحق أن ننظر إلى حسنة منه فنظن أنه لا ينحدر عن أفق التجويد ، ولا من العدل أن نرى له بعض السقطات فنحسبه لا يرتفع إلى سماء الاحسان، وننسى بهذا أن للجواد كبوات ، وللمحسن هفوات ؛ وانما الخير كل الخير أن يوضع الشاعر فى محله من الانصاف والعدل ، فلا نحبطه لزلة ، ولا نتعصب له لإجادة ، وقد مر بنا من القول ما جلونا به آفاق عبقريته ، ومدى صنعته ، ورأينا أن له من الكلم الطيب ما لا يلحقه فيه لاحق ، حتى يسطر به فى سجل الخلود ، وسنرى له من ردىء الكلام ما يسقط به ، فهو كسائر الشعراء الكبار ، تعرض له الأوقات التي يرتفع فيها ، والأوقات التي يهوي، وهو ما بينهما شاعر مجدد مبدع ، إذا افتخرت العربية بشعرائها العظام جعلته فى الفوج الأول منهم ؛

سمع شعره عُمارة بن عقيل ، حفيد جرير ، وكان شاعراً عالماً باللغة ثقة يأخذ العلماء عنه ، ويكرم مثواه الخلفاء فقال : « إن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطّراد المراد ، واستواء الكلام ، فصاحبكم هذا أشعر الناس ، وان كان بغيره فلا أدري » . (١)

---

(١) الصولي ٦١

فهذا مثل المنصف لجيد شعره ، ومثله رأي المعري عنه في رسالة الغفران إذ قال إنه « صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ مُستَتبَعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار » (١) لكنه يقول في موضع آخر على لسان عنترة بعد أن يسمع شيئاً من شعره المجدد فيه « أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطق به غبي ، وليس هذا المذهب على ماتعرف قبائل العرب » فيول محدثه : « إنما ينكر عليه المستعار ، وقد جاءت العارية في أشعار كثير من المتقدمين إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب » (٢)

وقد أعاد المعري رأيه بشعر أبي تمام في اللزوميات فقال :

رأيت عواريَّ الحياة كثيرةً كأن بقاء المرء شعر حبيب

وذكروا عن جماعه من الشعراء كالبحتري وابن الرومي وابراهيم بن الفرج وكان من أعلم الناس بالشعر ، أنهم كانوا إذا ذكروا أبا تمام عظّموه ، ورفعوا مقداره في الشعر ، حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكلٌ يقر بأستاذيته ، وأنه منه تعلم . وهؤلاء أعلم أهل زمانهم بالشعر وأشعر من بقي في أيامهم .

وكان عبد الله بن المعتز يدافع عنه في الحق ، ويميل عليه في الصدق ويقول: « ربما رأيت في تقديم بعض أهل الأدب الطائيَّ على غيره من الشعراء إفراطاً بيّناً ، فاعلم أنه من أوكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلته في الشعر ، لما يدعوه إليه اللجاج ، فأما قولنا فيه فانه بلغ غايات الإساءة والإحسان ، فكأنّ شعره قوله :

إن كان وجهك لي تترى محاسنه فإن فعلك بي تترى مساويه »

وقال عنه محمد بن شرف القيرواني : « ... وأما الطائي حبيب ،

(١) ص ١٦٦ (٢) ص ٩٢

فتكلف إلا أنه يصيب ، ومُتْعِب ، لكنْ له من الراحة نصيب ، وشغله المطابقةُ والتجنيس ، جيد ذلك أو ليس ؟ جزل المعاني ، مرصوص المباني ، مدحه ورثاؤه ، لا غزله وهجاؤه : طرفا نقيض ، وخطتا سماء وحضيض ، وفي شعره علم جم من النسب ، وخصلة وافرة من أيام العرب ، وطارت له أمثال ، وحفظت له أقوال » (١)

وهناك طائفة تذهب في الاعجاب بأبي تمام مذهباً بعيداً فكان محمد بن حازم الشاعر البصري المطبوع يقدمه في الشعر والعلم والفصاحة ويقول : « ما سمعت لمتقدم ولا مُحْدَث بمثل ابتدائه في مرثيته :

أَصمَّ بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

ولا مثل قوله في الغزل :

ما إنْ رأى الأقوامُ شمساً قبلَها أفلتْ فلم تُعقبهم بظلام

لو يقدِرون مشَوْا عَلَى وَجَناتِهم وعيونِهم فضلاً عن الأقدام

ويقول الصولي : « من تبحر شعر أبي تمام وجد كل محسن بعده لائذاً به ، كما أن كل محسن بعد بشار لائذٌ ببشار ، ومنتسب إليه في أكثر إحسانه » (٢) .

ويقول أبو العباس محمد بن يزيد : « ما هضم شعر هذا الرجل إلا أحد رجلين : أما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، وأما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه » .

ويقابل هؤلاء جماعة ساءتهم عبقرية ابي تمام فكان دعبل الشاعر الهجاء اذا سئل عنه قال : « ثلث شعره سرقة ، وثلثه غث ، وثلثه صالح » وكان

---

(١) أعلام الكلام ٢٣ (٢) ص ٧٦

يقول : « لم يكن ابو تمام شاعراً وانما كان خطيباً ، وشعره بالكلام اشبه منه بالشعر » (١)

وكان دعبل يميل على ابى تمام ولم يدخله فى كتابه « كتاب الشعراء »

وقال ابن الاعرابى وقد انشد شعراً لابى تمام « ان كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل »

وقال أبو حاتم السجستانى : « ما أُشَبِّهُ شعرَ هذا الرجل إلا بثياب مُصْقَلات خُلْقان ، لها روعةٌ وليس لها مُفَتَّش » .

وكان الكاتب الشاعر ابراهيم بن المدبّر يتعصب على أبى تمام ويحطه عن رتبته ، فلاحاه عبد الله بن المعتز وقال له أتقول هذا لمن يقول ... وانشده شيئاً من جيد شعره .. فكان كأنما ألقمه حجراً . (٢)

(١) الصولي ٢٤٤ (٢) ٩٩

مهما يكن من شأن عبقريته مدحاً أوذماً ، فانها أثرت فى الشعراء وكانت فتحاً جديداً لهم ، اخذوا طريقتها في الصوغ والاداء ، وأسلوبها فى الغوص على المعاني، والانتفاع بمختلف الثقافات والآراء ، وحسبنا أن نلتفت إلى الشعراء من بعده لنرى أى أثر كان له فى المتنبي ، الذى تفنّن فى النظم، وبرع فى الحكمة ، وجود في الوصف ، وأى طابع ظهر في أدب المعرى ، وصنعته المبالغ فيها ، وآرائه الحكيمة ؛ ولا تبعد كثيراً ، فهذا أبو عبادة البحتري وهو عبقرية عربية ، يسلكها أبو تمام فى سلك الخلود ، ويطبعها بطوابع قوية من تأثيره الفني فى الصنعة وحسن الاداء ،حتى حار المؤلفون فى تقديم أحدهما على الآخر واشتغلت بذلك أفكار العلماء بالشعر .

الموازنة بين أبى تمام والبحترى :

فألف الآمدى كتاب الموازنة بينهما ، وكتب غيره فى تأثير الأول بالآخر ؛ والناظر فى شعر الشاعرين يجد أبا تمام قد انفرد بأمور أمدّ بها العربية كذخيرة عظيمة ، وقد عرفناها من قبل وهي فى جملتها تتناول تجديده في الصنعة ، وإغراقه فيها ، وابتكاره للمعانى الرائعة واستنباطه للافكار العويصة ، واهتمامه بها اهتماماً عظماً يتضاءل دونه اهتمامه الشديد باللفظ والصوغ وحسن الاداء ، هذا إلى إكثاره من المحسنات : من طباق وجناس واستعارة وكناية ، وإتيانه بالمعاني الفلسفية ، وانتفاعه بالثقافات المتنوعة والمعلومات الكثيرة التي خزنها فى صدره ، مع إغراب وتكلف فى اللفظ والمعنى فى بعض الأحيان .

ويقابل هذا جميعاً عند البحترى حرصه على الصنعة والاداء وحسن الايراد ، مع تفنن فى المحسنات من تجنيس ومطابقة ، وعناية بانتقاء الالفاظ العذبة ، والعبارات الحلوة ، دون اغراق فى طلب المعاني ، وبحسبها ان تكون معاني صحيحة ، في كلام مستقيم ، جيد النظم ، لا غرابة ولا حوشية ولا سقوط فيه ، ليقذف بها عن فيض خاطر ، وصفاء طبع .

فاذا كان المرء اميل الى الصنع والغموض والتفكير فابو تمام احب اليه ، وان كان اميل الى سهولة الكلام وقرب مأخذه وحلاوة اسلوبه ، وكثرة رونقه ، وظهور معانيه ، فالبحترى آثرُ عنده ، واذا قيل إن شعر الاخير شعر الطبع ، وشعر الاول شعر الصنع ، فليس معنى هذا تجريد كل منهما من مزية الآخر ، وانما هو الوصف الغالب على الرجلين .

وقد وازن بينهما شيخ الادباء محمد بن يزيد المبرد صاحب الكامل فقال :

« لابى تمام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ طريفة ، لا يقول مثلها البحتري ، وهو صحيح الخاطر ، حسن الانتزاع ، وشعر البحترى احسن استواء ، وابو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذى كان اعجب الى الاصمعي . وما اشبّهُ ابا تمام الا بغائص يخرج الدرر الخشكلبة (١) ، والله ان لابي تمام وانبحتري من المحاسن ما لو قيس باكثر شعر الاوائل ما وجد فيه مثله » . (٢)

وقال البحترى وقد سئل : ايمّا اشعر انت أو ابو تمام ؟

« ابو تمام اغوص على المعاني ، وانا اقوم بعمود الشعر » وقال ايضاً : « جيّده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه » .

قال ابو بكر الصولي :(٣) « قد صدق البحتري فى هذا ؛ جيد ابي تمام

١) خرز ابيض يشبه اللؤلؤ . (٢) الصولي ٩٧ . (٣) ٦٧

لا يتعلق به احد فى زمانه ، وربما اختل لفظه قليلا لا معناه ، والبحتري لا يختل » . واورد ايضاً (١) « ولا اعرف احداً بعد ابي تمام اشعر من البحترى ، ولا اغض كلاماً ، ولا احسن ديباجة ، ولا أتم طبعاً ، وهو مستوي الشعر ، حلو الالفاظ ، مقبول الكلام ، يقع على تقديمه الاجماع ، وهو مع ذلك يلوذ بأبي تمام فى معانيه ، فأي دليل على فضل ابي تمام ورياسته يكون أقوى من هذا » .

وكان الامام ضياء الدين الموصلي يرى ابا تمام والبحتري والمتنبي اعظم شعراء العرب ، فهم سلسلة مرتبطة الحلقات سمت فى قديم الدهر وحديثه فى الشعر وقال عنهم إنهم : « لات الشعر وعُزّاه ومَناته ، الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء » . (٢)

وقد عمد الى المقارنة بينهم فذكر لكل خصائصه ، واذا كان هذا الكتاب مخصصاً لابى تمام فان من تمام معرفة الشاعر ان توازن بينه وبين صاحبيه في حكم واحد ؛ لانحب ان نقطعه اثلاثا ، فاستمع إلى الموصلي يحدثك ويقول : « لقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وانفدت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فالفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى الى احصاء قول لم تحص اسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، اذ المراد من الشعر انما هو إيداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل » ثم يذكر اكتفاءه فى هذا بشعر هؤلاء الثلاثة ويقول :

« اما ابو تمام فانه رب معان ، وصيقل الباب واذهان ، شُهد له بكل

(١) ٧٣ (٢) المثل السائر ٣٠٢

معنى مبتكر ، لم يمش فيه على اثر ، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب ، الذى برز فيه على الأضراب . . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، اطاعته اعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام .. » .

« واما ابو عبادة البحترى فانه احسن فى سبك اللفظ على المعنى ، واراد ان يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد ، اذ تشبث بريف العراق ، وسئل ابو الطيب المتنبي عنه وعن ابي تمام وعن نفسه فقال : « انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحترى » ولعمري انه انصف فى حكمه ، واعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان ابا عبادة اتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة المـــاء ، فادرك بذلك بعد المرام ، مع قربه الى الأفهام ، وما أقول الا انه اتى فى معانيه باحـلاط الغالية ، ورقي فى ديباجة لفظه الى الدرجـة العالية » .

« وأما إبوالطيب المتنبي فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قيادة ما أعطاه ، لكنه حظي فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف مواقف القتال ، ... إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ابن حمدان ، فيصف لسانه ، ماأدى إليه عيانه ، ... » ثم يقول بعد كلام عن المتنبي : « وإني لم أعدل إلى (هؤلاء الثلاثة) اتفاقاً ، وانما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت

شعره على المحك ، الا وعرضته على نظري ، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد ؛ ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من أبي عبادة ، ولا أنفس (١) ديباجة ، ولا أبهج مسلكاً ، فاخترت حينئذٍ دواوينهم ، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ » .

ولما تعرض للكلام على نجوم بني أمية جرير والفرزدق والأخطل قال إنهم أشعر العرب أولاً وآخراً ، لأنهم أجادوا في كل ما أتوا به من المعاني المختلفة ، وأشعر منهم عند ابن الأثير الثلاثة المتأخرون : أبو تمام والبحتري والمتنبي ، إذ لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء ؛ أما أبو تمام والمتنبي فربّا المعاني ، وأمّا أبو عبادة فربّ الألفاظ في ديباجتها وسبكها .

وسئل الشريف الرضي عن هؤلاء الثلاثة فقال: « أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جؤذر ، وأما المتنبي فقائد عسكر » فوصف كلاً منهم وأوجز . (٢)

---

(١) في الأصل : أنقش . المثل السائر ٣٠٣ (٢) ٣١٥

إغارة الأدباء على شعره

تظهر أستاذية أبي تمام في الأدباء والشعراء إذا تعقبناهم في معانيهم وآرائهم ، وطريقة صوغهم ، فانا نجد أثره واضحاً فيهم ، يدلنا على الاقتباس منه والإغارة عليه . على أن هناك أماكن تخفى فيها إغارة المتأخر على المتقدم ، لما يتخذ المتأخر من مدب دقيق إلى شعر أبي تمام ، ولما يكون في الكلام من براعة المأخذ ، حتى لا تظهر معالم الاقتباس ، وإذا كان العثور على السرقة الأدبية عسراً في الشعر ، فانه في النثر أصعب ، ومع هذا فنحن نعلم عن بعض كبار الكتاب أنهم نثروا أبياتاً لأبي تمام في كتابتهم ، من ذلك أن ابراهيم بن العباس الصولي قال « ما اتكلت في مكاتبتي إلا على ما يُجيله خاطري ، ويجيش به صدري ، إلا قولي « وصار ما كان يُحرِزُهم يُبرزُهم ، وما كان يَعقِلُهم يعتقِلُهم) وقولي في رسالة أخرى « فأنزلوه من مَعْقِل إلى عُقّال ، وبدلوه آجالاً من آمال » فاني الممت في قولي « المَعْقِل والعُقّال » بقول أبي تمام :

وإن يبنِ حيطاناً عليه فإنما أُولئك عُقّالاته [1] لا معاقلُه

وقال ضياء الدين الموصلي :

« لا يظفر الرجل بمطالبه شفعاً ، ولا تؤتيه من كل جهة نفعاً ، بل يرى مرعى بلا ماء ، وماء بلا مرعى ، ولذلك كانت النحلة مع الشهدة ، والشوكة مع الوردة » وبعض هذه المعاني مأخوذ من قول أبي تمام :

---

(١) العُقّال داء يعرض للخيل كأنه يعقلها (يربطها) عن الجري .

أرض بها عُشُبُ زاكٍ وليس بها ماء ، وأُخرى بها ماء ولا عشبُ

وقال : « وقد علم أن لين القول أنجع قبولاً ، وهو من أدب كليم الله إذ بعثه إلى فرعون رسولاً ، ألا ترى أن الحداء يبلغ من المطايا بلطفه ، ما لايبلغه السوط على عنفه » وبعض هذا مأخوذ من قول أبى تمام :

وخذهم بالرقى إن للهارى يُهيِّجُها عَلَى السير الحداء

أما غارات الشعراء على شعره فاستقصاؤها أمر يطول ، ومن أظهرها احتذاء البحتري طريقة أبى تمام فى وصف الفرس والتخلص منه إلى الهجاء (وقد مر فى الكلام على الوصف)

ومن ذلك أن أبا تمام قال وكأنما فيه طبع البحتري :

يَستنزلُ الأملَ البعيد ببشره بُشرى المُخيلةِ بالربيع المُغْدق

وكذا السحائبُ قلما تدعو إلى معروفها الرّوادَ مالم تُبرق

فما زال البحتري يردد هذا المعنى فى شعره ويتبع أبا تمام فيه ، ويقع في أكثره ،فكان مما قال فيه وصار إلى التكلف الذي يعاب عليه أبو تمام :

كانت بشاشتُك الأُولى التي ابتدأت

بالبِشر ثم اقتبلْنا بعدها النِّعما

كالمزنة اسْتَوْبَقَتْ أُولى مَخيلتِها

ثم استَهلَّتْ بغُزْر تابعَ الدِّيما

قال المرزُبانى فى الموشح : «فسبحان الذى حوّل تكلف ابى تمام الى البحتري ، وطبع البحترى الى ابى تمام . » (١)

(١) ٣٣١

وما سبق اليه ابو تمام قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويتْ أتاح لها لسانَ حسود

فقال البحترى : (١)

ولن تستبين الدهرَ موضعَ نعمةٍ إذا أنت لم تُدْلَلْ عليها بحاسد

وقال ابو تمام :

بُخلٌ تَدين بحلوه وبمرِّه فكأنه جزءٌ من التوحيد

فقال البحترى : (٢)

وتَدَيُّنٌ بالبخل حتى خلته فرضاً يدان به الإلهُ ويعبد

ومن روائع ابى تمام :

حنَّ إلى الموت حتى ظنَّ جاهلُه بأنه حنَّ مشتاقاً إلى وطنِ

فقال البحترى : (٣)

تسرَّعَ حتى قال مَن شهد الوغى لقاء أعادٍ أم لقاء حبائب

وقال ابو تمام :

همةٌ تنطحُ النجوم وَجَدٌّ آلِف للحضيض فهو حضيض

فقال البحترى :

متحيرٌ يغدو بعزم قائم في كل نازلة وجد قاعد

واغارات البحترى خاصة على ابى تمام كثيرة نكتفي بما مر منها

واغار المتنبي على كثير من معانى ابى تمام فمن ذلك قول حبيب :

(١) الموازنة ٢٩١ (٢) الصولي ٧٧ (٣) ٧٩

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة

سدىً لم يسسها قبلُ عبدٌ مجدَّع

حلت نُطفٌ منها لنكسٍ ، وذو الحِجا

يداف له سُمٌ من العيش مُنْقعُ

فاخذ المعنى ابو الطيب فوفق فيه وابدع وكان اسير قولا :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال ابو تمام :

وليس يُجلي الكَرْبَ رمحٌ مسدَّدٌ

إذا هو لم يؤنس برأي مسدَّد

فقال ابو الطيب وكان قوله اسهل واسير :

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أولٌ ، وهي المحل الثاني

وعمد ابو الطيب الى قصيدة ابى تمام التي اولها « أى القلوب عليكم ليس ينصدع » فصاغ قصيدة على وزنها وقافيتها واولها « غيرى باكثر هذا ينخدع » ثم اخذ بعض معانيها فمن ذلك قوله :

لم يُسلم الكرّ في الأعقاب مهجَته

إن كان أسلمها الأصحاب والشيع

اخذه من معنى ابى تمام :

ما غاب عنكم من الاقدام أكرمه

في الروع إذ غابت الأنصار والشيع

وهذه من اوضح السرقات ،اذ نادى على نفسه فى سرقته .

وقال ابو تمام :

هو الصنع إن يعجلْ فنفع ، وإن يرثْ

فَللرَّيثُ في بعض المواطن أنفع

فأخذ المتنبي معناه وضرب له مثالاً يوضحه فقال مبدعاً (١):

ومن الخير بطء سيبك عني

أسرع السحب في المسير الجَهام

وكذلك مهد ابو تمام القول الى المتنبي اذ قال هذا :

وجاهلٍ مَدَّه في جهله ضحكي

حتى أتتهُ يدٌ فرّاسةٌ وفمُ

إذا رأيت نُيوبَ الليث بارزةً

فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم

وهو من ابى تمام اذ يقول(١) :

قد قُلِّصَتْ شفتاه من حفيظته

فَخِيلَ من شدة التعبيس مبتسما

(١) المثل السائر ٣١٢

وكثير هم الشعراء الذين اغاروا على شعر الطائى غير البحتري والمتنبي ، واذا كان تعقبهم يقتضي كتاباً اوسع فلا اقل من ان نكتفي بالقليل ، فمن ذلك ان ابا تمام قال :

أدميت باللحظات وجنتَه فاقتصَّ ناظرُه من القلب

اخذه ابن الرومي فوسعه وقال :

جرحته العيون فاقتصَّ منها بجوىً في القلوب دامي الندوب

وقال الطائى :

وإذا المجد كان عوني عَلَى المر ء تقاضيته بترك التقاضي

فقال ابن الرومى :

وكلت مجدك في اقتضائك حاجتي وكفى به متقاضياً ووكيلا

وقال الطغرائى بيته المشهور :

أُعللُ النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيشَ لولا فسحةُ الأَمل

اخذه من قول ابى تمام :

ولولا رجائي واتكالي عَلَى الذي توحدني بالصنع كهلاً وناشيا

لما ساغ لي عذبٌ من الماء بارد ولا طاب لي عيش ولا زلت باكيا

وقال عمارة اليمني يمدح بعض الخلفاء :

فهل درى البيت أني بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

اخذه من قول ابى تمام مادحا بعض الخلفاء فى حجة حجها :

يا من رأى حرماً يسري إلى حرم طوبى لمستلم يأتي وملتزم

وقال ابو تمام :

ولو لا خلال سنها الشعر مادرى بناة العلى من أين تؤتى المكارم

اخذه ضياء الدين الموصلي فقال : (١)

لولا الكرام وما سنوه من كرم لم يدر قائل شعرٍ كيفَ يمتدح

وانك لتجد بعد هـذا ان معاني ابي تمام ، وأسلوبه ، وعبقريته كانت منهلاً ورده كبار الشعراء والادباء ، فليس غريباً ان يكون استاذاً يعرف فضله على الدهر .

(١) المثل السائر ٣٠٧

اغارته على الشعراء

لم تكن اغارة الشعراء على شعر ابي تمام امراً عجباً ، ما دام هو نفسه يغير على المتقدمين . كما اغير عليه ، فيأخذ معنى البيتين الماضين (ص ٩١) في تقدم البرق على المطر من ابي نواس اذ يقول :

بِشْرُهُمُ قبلَ النوالِ اللاحقِ كالبرق يبدو قبلَ جُودٍ دافقِ
والغيثُ يَخفىٰ وقعُه للرَّامقِ ما لم تجدْه بدليلِ البارقِ

وقال الفرزدق لنصر بن سيَّار الليثي :

يا نصرُ أنت فتى قريشٍ كُلِّها ريشي وريشُك من جناحٍ واحد

فقال ابو تمام لعلي بن الجهم : (١)

أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا عذبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحد

وقال بعده البحتري :

وأقلُّ ما بيني وبينك أننا نرمي القبائل عن قبيل واحد

وقال كثيّر صاحب عَزّة :

إذا وصلتْنا خُلّةٌ كي تزيلَها أبينا وقلنا الحاجبيةُ أولُ

أخذه أبوه تمام فقال :

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما القلب إلا للحبيب الأول

(١) الصولي ٦٢ ، ٧٨

وقال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطيرُ في وُكُناتها بمنجرد قيْدِ الأوابدِ هيكل

فقال ابو تمام واعجبه هذا القيد :

لها منظرٌ قيدُ المناظر لم يزلْ يروح ويغدو في خفارته الحبُّ

وادعى دعبل انه السابق الى معنىً يقول فيه :

وإنَّ امرأً أسدى إليَّ بشافعٍ إليه ويرجو الشكر مني لأحمق

شفيعَك فاشكرْ في الحوائج إنه يصونُك عن مكروهها وهو يُخلق

فأخذ المعنى ابو تمام وقال واحسن (١) :

فلقيتُ بين يديكَ حلوَ عطائه ولقيتَ بين يديَّ مُرَّ سؤالِه

وإذا امرؤ أسدى إليَّ صنيعةً من جاهه فكأنها من مالِه

وقال ابو العتاهية : « رققت حتى كدت ان احسوك »

فأخذه ابو تمام وقال (٢) :

رقت جواهر أجناس الغزال فلو مُلِّكتُه لشربتُ الخشفَ في الكاس

ولكنه استعمل أولاً « الغزال » ثم « الخشف » وهو كريه

وقال الأعشى :

هم يطردون الفقر عن جارهم حتى يرى كالغصنُ الناضر

(١) الصولي ٦٤ (٢) الموشح ٣١٥

فقال أبو تمام :

مَنْ شرد الإعدامَ عن أوطانه بالبذل حتى استُطرف الإعدام

وقال الشاعر القديم :

بُغاث الطير أكثرها فراخاً وأمُّ الصَّقْر مِقلات نَزور

فقال أبو تمام :

أبا جعفرٍ إن الجهالة أمُّها وَلود وامُ الحلم جدَّاء حائل(١)

وقال أبو تمام فى وصف الفرس :

إمْليسُه إمْليدُه لو عُلِّقَتْ في صَهْوَتَيْهِ العين لم تَتَعلق

أى أن العين لا تتعلق به لأنه أملس أملد ، ولا تصيبه إذ أنها إذا صعدت فيه صوبت اشفاقاً عليه ، وهو مأخوذ من قول امرىء القيس : « متى ما ترقَّ العين فيه تسفل » ومعنى امرىء القيس أصح ، فضلاً عما فى نظم بيت الطائي من تكلف (٢) .

وينسب للسموءل (صموئيل) بن عاديا :

وإن هو لم يحملْ عَلَى النفس ضيمَها فليس إلى حُسن الثناء سبيلُ

فاعجب أبا تمام هذا البيت المشتمل على مكارم الأخلاق التي تنشأ عن ضيم النفس ومشقتها فقال :

---

(١) الجداء : المنقطعة النسل ؛ والبغاث : طير كالبواشق لا تصيد شيئاً واحدتها بغاثة ، والإقلات أن تضع الناقة واحداً ثم يقلت رحمها فلا يحمل ، ويقال امرأة مقلات ونسوة مقاليت ، وهي التي لا يعيش لها ولد أيضاً .

(٢) الموشح ٣١٦

وظلمتَ نفسك طالباً معروفَها

فعجبتُ من مظلومةٍ لم تُظلم

ومن إغارات أبي تمام الدقيقة التي لا يُفطن لها إلا بعد التأمل قوله :

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً

تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

وقد دله على هذا المعنى عروة بن الورد من شعراء ديوان « الحماسة » الذي انتقاه أبو تمام ، وفيه قول عروة :

ومن يكُ مثلي ذا عيال ومُقْتِراً من المال يطرحْ نفسَه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبةً ومبلغُ نفسٍ عذرُها مثل منجح

« فجعل عروة اجتهاده في طلب الرزق عذراً يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب ، الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو ، قائماً مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف ، وهذا الضرب من سرقات المعاني من أشكلها وأدقها وأغربها وأبعدها مذهباً »(١)

وقد مر بنا قول أبي تمام :

قد قُلِّصتْ شفتاه من حفيظته فخِيل من شدة التعبيس مبتسما

وقد سبقه إلى هذا المعنى عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن فقال:

تلقَ ليثاً قد قُلِّصت شفتاه فيُرى ضاحكاً لعبس الصيال

(١) المثل ٣٠٥

وقال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيماً بشعري ولـكني مدحت بك المديحا

سبقه حسان فقال فى الرسول صلى الله عليه وسلم :

ما أن مدحت محمداً بمقالتي لـكن مدحت مقالتي بمحمد

والمعاني التى أخذها عن غيره كثيرة نجتزىء بما مر منها .

وكان دعبل يقول إن قصيدة أبي تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسي مسروقة معظم أبياتها من قصيدة قالها مَكنف أبو سَلمى من ولد زهير بن أبي سُلمى يرثي بها ذفافة العبسي ومطلعها :

أبعد أبي العباس يُستعتبُ الدهر وما بعده للدهر عُتبى ولا عذرُ

فوضع أبو تمام اسم محمد بدل ذفافة وفيها يقول :

توفيت الآمال بعد محمدٍ وأصبح في شغل عن السفرَ السفْر

وأوردها الصولي وصاحب الموشح [1] وذكر هذا « أن للطائي سرقات كثيرة أحسن فى بعضها وأخطأ فى بعضها ، ولما نظرت فى الكتاب الذي ألفه فى اختيار الأشعار (يريد الحماسة) وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء ، وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عُدة يرجع إليها فى وقت حاجته ، ورجاء أن يترك أهلُ المذاكرة أصولَ أشعارهم على وجوهها ، ويقنعوا باختياره لهم ، فتغبى عليهم سرقاته » وقال :

« ولا يعذر الشاعر في سرقته حتى يزيد في إضاءة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ، ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغنٍ عنه لا فقير إليه. » [2]

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٠٠ ، الموشح ٣٢٨ (٢) ٢١٢

قلت : ذلك مما يتحامل فيه المرزباني على أبي تمام ، إذ أوضح أن حبيباً طوى أكثر إحسان الشعراء لإخفائه عن الناس أو لاتخاذه عدة له ، فكأن الناس لا يجدون الإحسان ولا يلتمسونه ، في زعمه ، إلا فيما يورده لهم أبو تمام ، أو كأنهم لا يعرفون غير (الحماسة) مرجعاً للمطالعة والتعلم والمدارسة، أضف إلى هذا أن حبيباً في كثير من إغاراته قد زاد في إضاءة المعنى ، وجزالة القول ، فكان الأصوب أن يقف المرزباني بالقول عند الجملة الأولى بأن أبا تمام قد أحسن في بعض سرقاته وأخطأ في بعضها .

ثم إن إلى جانب هذه السرقات هفوات ومعائب حاسبه عليها العلماء والبصراء بالشعر .

معائب شعره

الناظر فى ما تقدم من الكلام على انطلاقه من وصيته الشعرية ، وفى ما آخذه عليه العلماء ، يرى معائب شعره طوائف مختلفة يغلب على كل منها وصف قد لا يقتصر عليه .

ـ فطائفة منها فاسدة المعاني كقوله :

كأنَّ بني نبهان يوم وفاته نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ

اراد ان يمدحه فهجاه ، لان اهله كانوا خاملين فى حياته ، فلما مات اضاؤوا بموته ، لان الكواكب احسن ما تكون اذا لم يكن معها قمر ، هذا الى ما في جرس كلمة (خرَّ) من البعد عن الذوق الموسيقي فى الشعر ، ومثله قوله :

لو خرَّ سيفٌ من العَيُّوق منصلتا ما كان إلا عَلَى هاماتهم يقعُ

اراد انهم يحتملون المصائب ، صُبْرٌ عليها ، ولكن ظاهر الكلام يدل على انه ليس فى الدنيا احد اذل من هؤلاء ، فلا يرفع احد سيفه الا قتلهم من غير ان يضرب به انسان . وقوله :

كذا فليجلَّ الخطبُ وليَفْدَح الأمرُ

فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عذر

فان عجز البيت لا يشبه صدره فى الجودة ، وكان ينبغى على الشاعر ان يذكر المرثي بمدح ورقة فى الشطر الاول ليستقيم معنى الشطر الثانى

ويلائمه ؛ ثم انه لا يقال « كذا فليقتلنا الله » وقد اشرنا الى هذا فى الرثاء؛ ومثله قوله :

تكاد عطاياه يُجَنُّ جنونُها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

فقيل لم يجن جنون عطاياه انتظاراً للطلب ؟ الا يبتديء بالجود فيستريح ؟!

وقوله فى مدح الافشين بالشجاعة ووصفه بالتنين حين انهزم بابك امامه :

ولىَّ ولم يظلم وهل ظلمَ امروٌ حثَّ النجاء وخلفه التنينُ

ولو انه اجهد نفسه فى هجاء الافشين ما كان يزيد على تسميته بالتنين ؛ ومثله قوله :

أعطيتَ لي ديةَ القتيل وليس لي عقلٌ ، ولا حقٌ ، عليك قديمُ

فقوله « ليس لي عقل » مما ذم به نفسه فيما يتبادر الى الذهن اولاً ، ولو قال « ليس لي عليك عقل » لزال اللبس ولكن الوزن به لا يستقيم.

— وطائفة منها سخيفة مثل قوله : (١)

أَفَعِشتَ حتى عبتَهم قل لي متى فرزنتَ سرعةَ ما أرى يا بيدقُ

قوم إذا اسودَّ الزَّمانُ توضَّحوا منه فغودر وهو منهم أبلقُ

وقوله :

إذا فقد المفقود من آل مالكٍ تقطع قلبي رحمةً للمكارم

فتقطع القلب هذا من السخف فى النظم ، وقالوا إنه من كلام المخنثين ، وقوله :

(١) الموشح ٣٠٦

لقد وهب الإمام المال حتى لقد خفنا بأن يهب الخلافَهْ
به عاش السماح وكان دهراً من الأموات ميتاً في لِفافه

وقال في عبد الحميد بن جبريل :

شكوتُ إلى الزمان نُحولَ جسمي فأرشدني إلى عبد الحميد

وفى هذه القصيدة قوله :

ولا تجعل جوابك فيه لي «لا» فأكتب ما رجوت عَلَى الجليدِ

والمعروف أن المثل يضرب بالكتابة على الماء فى الخيبة . اما الكتابة على الجليد فتجديد سخيف . وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدَّعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقوله :

ما زال قلبي منذ علقته أعمى من الحرقة ما يبصر

وقوله :

ما زال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم

وقوله :

أيا من شفني فصبرت حتى ظننت بأن نفسي نفس كلب

وقوله :

كيف يصدُّ الدمعَ عن جَرْيه مَنْ عينُه مِن جريه مُنخلُ

— ومنها طائفة غريبة التشابيه والاستعارات والكنايات كقوله :

ذعرتها النوى فأسبلتِ الدم ع عَلَى الخد من تلاع المآقي

فتشبيه المآقي بالتلاع ينبو عنه الذوق ، قوله :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرْ رأس إلا من فضل شيب الفؤاد

فشيب الفؤاد من سخيف الاستعارات . وقوله :

مجدٌ رعى تَلَعات الدهر وهو فتىً حتى غدا الدهر يمشي مشية الهرم

وقوله :

كان الزمان بكم كلباً فغادركم بالسيف والدهر فيكم أشهرُ الحرمِ

لا تجعلوا البغي ظهراً أنه جَمَلٌ من القطيعة يرعى واديَ النعمِ

نظرت في السِّيَر الأُولى خَلَتْ فإذا

أيّامه أكلتْ باكورةَ الأُمم

ومن استعاراته المستكرهة قوله :

بلوناك ، أمّا كعبُ عِرضك في العلا

فعالٍ ، وأما خَدُّ مالِك أسفلُ

وقوله: « كعب عرضك ، وخدّ مالك » مما يستنكر ومراده أن عرضك مصون ومالك مبتذل ، ومثله قوله :

لو لم تَدارِكْ مُسنَّ المجدِ من زمن بالجود والبأس كان المجد قد خَرِفا

فالاستعارة في المجد المسن ونسبة الخرف اليه ، من قبيح المعاني وكريه الاستعارات ، ومثله في تجسيم السير وجعلة مرآ في المأكل والمشرب وفي تخيل الظلم بعيراً باركاً :

كلوا الصبر مُراً واشربوه فإنكم أثرتم بعير الظلم والظلم بارك

فهذا من أقبح الكلام . ويستنكر قوله فى المجاز :

لبستُ سواه أقواماً فكانوا كما أغنى التميمُ بالصعيد

ومن قبيح ما سمع من تشبيهاته قوله :

وتقاسم الناس السخاء مُجَزَّأً وذهبت أنت برسه وسَنامه

وتركتَ للناس الإهاب وما بقي من فرثه وعروقه وعظامه

والقبح ظاهر فى بيته الثاني وانما أراد معنىً ليس بطائل: هو أن يقول عن الممدوح أنه ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى .

— ومنها طائفة تقوم على المبالغات الشديدة كقوله :

من الغيدلو أن الخلاخل صُوِّرت لَها وُشُحاً جارت عليها الخلاخل

فالخلخال ليس وشاحاً ، قبل كل شيء ، ثم أن هذا الجسم الذي يتخذ الخلخال وشاحاً هو أشبه بجسم الجعـــل ، ولـكن الشاعر بالغ فى وصف الجسم بالنحول والرقة .

وقال :

ما كنت أحسبُ أن الدهر يُمهلني حتى أرى أحداً يهجوه لا أحدُ

فبالغ فى تصغيره حتى جعله (لاحداً) ، وكيف يكون « لا أحدٌ » يهجو أحداً ؟ ومع ذلك فهو في باب التحقير لا بأس به .

— وطائفة منها سيئـة الصنعة ، من ذلك أبيات له قبيحة مستكرهة الجناس كقوله :

وأهل موقان إذ ماقوا فلا وزرٌ أنجاهمُ منك في الهيجا ولا سندُ

وقوله :

قرَّتْ بقرَّانَ عينُ الدين وانشترتْ
بالأشترينْ عيون الشرك فاصطُلما (١)

وقوله :

خَشُنتِ عليه اخت بني خشين وانجح فيك قول العاذلَيْنِ

— ومنها طائفة كثيرة الغريب ظاهرة التكلف كقوله :

كان في الأجفَلىٰ وفي النَّقرى عُرْ فُك نضرَ العموم نَضْر الوِحاد

يقال دعاهم الجفلىٰ ، إذا دعاهم كلهم فأجفلوا ؛ ويقال دعاهم النقرىٰ إذا دعاهم واحداً واحداً ؛ وهذا مستكره فى الكلام من البدوي فكيف من ابن الحضارة ؛ وكقوله :

قدك اتئَبْ أربيتَ في الغُلَواءِ كم تعذلون وأنتم سُجراني (٢)

وقوله :

يقود نواصيها جُذَيلُ مشارق إذا آبهُ هَمٌّ عُذيقُ مَغاربِ

عنى انه كثير الأسفار ، وأراد قول القائل : انا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجّب (٣) .

---

(١) الاشتران مالك بن الحارث النخعي الشاعر التابعي وابنه ابراهيم (دلائل الإعجاز للجرجاني ٤٠٢) . (٢) السجير : الأنيس ، وأربيت : زدت ، واتّئبْ : استحي ، وقدك : حسبك . (٣) الجذيل : عود صغير ينصب للابل الجربى لتحتك به ؛ والعذيق : غصن صغير ذو شعب ، ورجّب النخلة : جعل لها ما تعتمد عليه . والمقصود بالمثل أنه أهلٌ للعظائم .

— ومما عابه الشعراء من شعره معاظلته كما فى قوله :

إلى خالد راحت بنا أرحبية مرافقها من عن كراكرها نكب

فقوله « من عن كراكرها » من المعاظلة الثقيلة ، وله معاظلات اثقل عابها الامام الموصلي وقال إن قلع الأسنان دونها (١) .

— ومن المآخذ عليه : تساهله ببعض الضرورات الشعرية الثقيلة كوصل همزة القطع فى (أجله) من قوله :

فأصبح يلقاني الزمان من أجله بإعظام مولود ورأفة والدِ

— ومنها مطالع سيئة كقبح ابتدائه فى المديح وقوله :

تجرع أسىً قد أقفر الجزَعَ الفردُ
ودَعْ حِسْيَ عينٍ يحتلبْ ماءها الوجْدُ

وابتدائه في « قدك اتئبْ أربيتَ فى الغلواء » وقوله : « كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر » ولا يقال « كذا فليكن » إلا فى السرور كما مرّ ؛ وقيل إن مطلع القصيدة بيت قبل هذا هو :

حرام لعينٍ أنْ يَجفَّ لها شُفْرُ وأنْ تَطْعمَ التغميضَ ما امتعَ الدهر

— ومنها ماعابوه من الحشو بكلمة (لعمري) فى قوله الذى يستقيم المعنى بدونها :

أقرّوا لعمري لحُكم السيوف وكانتْ أحقَّ بفصل القضاء

(١) انظر فى الديوان مثلاً ص ٩٣ ، ٩٤

— ومنها طائفة خالف فيها مألوف الناس فى معانيهم فهم مثلاً يرتفعون بمعانيهم من الدون إلى الأعلى ، ولكن أبا تمام يخالف ذلك ويقول :

خلُقٌ كالمُدام أو كرُضاب المسك أو كالعبير أو كالمُلاب

فوقع من الأعلى إلى الأدنى : من الخمر إلى الزعفران .

ومدح فقال :

وكن كريماً تجدْ كريماً تحظى بـه يا ابا المغيث

وانما يقال « كن كريماً » للئيم لالكريم ، فهجاه من حيث يريد مدحه ؛ ومثل ذلك قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدي خطوب يكاد الدهر منهن يُصرع

وقد تساءلوا كيف يصرع الدهر ، ومثله قوله :

وليَّن لي دهري بإتباع جوده فكدت لين الدهر أن أعقد الدهرا

فقالوا : كيف يعقد الدهر ؟ وقال :

لم تُسقَ بعد الهوى ماءً عَلَى ظماء

كماء قافيـةٍ يسقيكَـهُ فهمُ

فما هذه القافية التى يروي ماؤها باستعارة غير مألوفة ؟

— وعيب عليه قليل من الأخطاء فى اللغة كقوله :

بالقائم الثامنِ المستخلَفِ أطـأدتْ

قواعدُ الملك ممتداً لهـا الطول

وأخطأ فى اطأدت والصواب اتطدت لأن الأصل وطد يطد مثل وعد يعد ، فاذا بنى افتعل على طريق الابدال منها قلت اتعد ومثلها اتطد . وانتقد

عليه قوله :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت
أجأً إذن ثَقُلتْ وكان خفيفاً

وحلاوة الشيم التي لو مازجت
خلقَ الزمان القدم عاد ظريفاً

فاستعمل الظرف للخلق، وهو من صفات النطق، وعدّ ذلك جهلاً بمعرفة أصلها في وضع اللغة ؛ وليس هذا عندنا بشيء ،وليس بشيء أيضاً ماانتقد عليه به من أنه كان يأخذ بعض معانيه من أقوال الناس حتى العامة منهم ، فقد زعموا أنه نظم قصيدة انتهى فيها إلى قوله :

يرى أقبحَ الأشياء أوبةَ آملٍ
كسته يدُ المأمول حُلةَ خائب

ثم قال : وأحسنُ من نَور تُفتّحه الصَبا ... ووقف ... وإذ سائل يسأل على الباب ويقول : من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا ... فأتم أبو تمام البيت بقوله ... بياض العطايا في سواد المطالب .

وبعد فلسنا هنا في موضع الاستقصاء لما آخذه عليه البصراء بالشعر ، لولا الرغبة في عرض فكرة عن المجالات التي عثر فيها ، والمقاييس التي حوسب بها ، فنكتفي بما مر ، ونحن نذكر أن لابد للمكثار من العثار ، وان للجواد كبوات ، وللسيوف نبوات ؛ وسقطاته على كثرتها لا تحطه عن مرتبة العبقرية والتجويد والاحسان ، وفيها مايغفر الزلل ، ويُتجاوز به عن الخطل .

واذا تعقب احمد بن عبيد الله القطربلي معائب أبي تمام بكتابه ، او دافع

المرزوقي عنه بكتاب آخر ، أو تصدى له ابن الأثير والمرزباني وغيرهما في كتابيهما ، فان أحداً منهم لم ينكر تحليق أبي تمام في أجواء من الشعر لم يسبق اليها ، فان أحسن فتلك مظاهر خلوده ، وان أخطأ فقديماً كان الخطأ من طبع الإنسان .

واذا نسب اليه مانسب مع غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج [1] فعلينا أن نذكر دائماً ما قال المعرى في (ذكرى حبيب) : « انما اغلق شعر الطائي لانه لم يؤثر عنه فتناقلته الضعفة من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة وغيروا بعض الاحرف بسوء التصحيف »[2] وعلى رغم كل ماتقدم فابو تمام بلا شك من أفضل المثل التي تصور ربيع الفكر العربي ، ومقدرته على الازدهار والإثمار ؛ [3] انه شاعر الاضواء والألوان ، شاعر الزخرف والتنميق والتصوير ، وزخرفه قبل كل شيء فكر وفلسفة ، وكشف عن حقائق الحياة في أعماقها وأغوارها .

---

(١) انظر الموازنة للآمدي (٢) كشف الظنون ١ – ٥٠١ (٣) انظر الفن ومذاهبه ١٠٧ – ١٤١

كان ديوان شعره غير مرتب حتى جمعه ابو بكر الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ) ورتبه على الحروف ثم جمعه علي بن حمزة الاصبهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الانواع . وقد شرحه أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ ، وله عليه أيضاً شرح مختصر ، وشرحه كل من حسين بن محمد الرافعي المعروف بالخالع (٣٨٠ هـ) وأبي الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (٤٤٠ هـ) وأبي البركات ابن المستوفى مبارك بن أحمد الاربلي في عشر مجلدات (٦٣٧ هـ) وفسره أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ هـ) وللنصر لأبي تمام ودافع عن شعره أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي في كتابه (الانتصار من ظلمة أبي تمام) . واختصر الديوان ابو العلاء المعري (٤٤٩ هـ) وشرحه وسماه (ذكرى حبيب[1]) وفي بعض الروايات أنه فسر شعر أبي تمام في ستين كراسة . وشرح بعضه الصولي ، ولكن الشروح كلها لم تصل إلينا ، وما وصل لم يف بالمراد، وطبع في بيروت سنة ١٨٨٩ م ، وطبعه محي الدين الخياط (سنة ١٩٠٥م — ١٣٢٣هـ) في طبعة مشرقة وفيه ثمانية ابواب ، معظمها في المديح الذي تضمن كثيراً من الحكم والامثال والابداع ، واستنفد هذا الباب ثلثي الديوان وقد ضم

(١) كما فعل بديوان البحتري وسماه (عبث الوليد) وديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) ، وتكلم على غريب اشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع والتوجيه في اماكن لحظتهم (ابن خلكان ١/٤١)

اقساماً للرثاء ، والمعاتبات ، والوصف ، والغزل ، والفخر ، والزهد ، وانتهى إلى باب الهجاء فنشر « ما لا يمس بالآداب » وأغفل سواه ؛ وقد شرح الخيلط بعض الألفاظ الغامضة شرحاً لغوياً موجزاً . وطبع الديوان مصطفى وهبي عام (١٨٧٥ م — ١٢٩٢ هـ) طبعة لعلها أتم الطبعات ولكنها على الورق الأصفر .

وطبع ملحم ابراهيم الاسود قسماً معنياً به من الديوان عام (١٩٢٨م — ١٣٤٧ هـ) مع شرح موجز ، وهو لا يزال بحاجة الى عناية اشد انتباهاً واكثر صبراً .

اما (حماسة أبي تمام) ففيها ما اختاره من الشعر الجيد يوم حبسه الثلج بهمذان ، وقد طبعها في مصر محمود توفيق سنة ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م ، مع شرح موجز . بعد ان طبعها المستشرق الألماني فريتاغ بشرح التبريزى وبترجمة لاتينية ١٨١٩ م وقد بدأها بباب الحماسة ، وهو أطولها ، ولذلك أطلق على مختاراته كلها اسم (الحماسة) ثم ذكر ابوابها فى الرثاء ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والاضياف ، والمديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والمُلح ، وذم النساء؛ وقد عني بها المتقدمون فشرحها التبريزى والعسكري والمعري وابن جني والآمدي والصولي وغيرهم ، وذُكر عن التبريزي قوله « إن أبا تمام كان فى جمعها أشعر منه فى شعره » وقد سار على غرارها البحتري وابن فارس فى اختيار منتخبات سميت بالحماسة أيضاً ؛ وطبعت حماسة الأول فى بيروت بعد أن نشرها مرغوليوث ، وقلد أبا تمام فى حماسته ايضاً الخالديان في « حماسة شعر المحدثين » وابو هلال العسكري فى « الحماسة العسكرية » وابو السعادات هبة الله بن الشجري العلوي (٥٤٢ هـ) فى حماسته المعروفة « بمختارات ابن الشجري » وصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري فى «الحماسة البصرية» (٦٤٧هـ) .

ولكل من علي بن الحسن المعروف بشميم الحلي (٦٠١هـ) وابى الحجاج يوسف بن محمد الاندلسي البياسي (٦٥٣هـ) ، والاعلم الشنتمري (٤٧٦هـ) (حماسة) أيضاً هي مما أختاروه من أشعار العرب.

وللمعري « حماسة اراح » وهو عشر كراريس في ذم الخمر خاصة ، وقيل ان له شرحاً لبعض الحماسة الرياشية فى أربعين كراسة .

وللسيوطي « حماسة » فى تفسير الألفاظ المتداولة ؛ وهذه الثروة العلمية الأدبية ما تزال في ذمة الايام .

بعض المراجع المعتمد عليها في هذه الدراسة

أخبار أبي تمام : لأبي بكر الصولي . ط – القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م

أسرار البلاغة : لعبدالقاهر الجرجاني. ط – القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م

أعلام الكلام : لمحمدبن شرف القيرواني . ط – القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م

الأغاني : للاصفهاني .ط – القاهرة ١٣٠٣ (قديمة)

دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجاني . ط – القاهرة ١٣٣١ هـ

ديوان أبي تمام : ط – بيروت ١٩٠٥ م ، القاهرة ١٩٢٨ م ، ١٢٩٢ هـ

رسالة الغفران : للمعري. ط – القاهرة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م

الصناعتان : لأبي هلال العسكري .ط – القاهرة ؟

الفن ومذاهبه في الشعر العربي : لشوقي ضيف ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م

الفهرست : لابن النديم . ط – القاهرة ١٣٤٨

قراضة الذهب : للحسن بن رشيق القيرواني . ط – القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م

كشف الظنون : لملا كاتب جلبي . ط – دار السعادة ١٣١٠

المثل السائر : لضياء الدين ابن الأثير . ط – القاهرة ١٣١٢

معجم الأدباء : لياقوت . ط – القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م

الموازنة : للحسن بن بشر الآمدي .ط – القاهرة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م

الموشح : للمرزباني . ط – القاهرة ١٣٤٣

وفيات الأعيان : لابن خلكان – ط – القاهرة ١٣٩٩

اولاد

ارجاء کانفرنس الٰہ آباد ۱۹۲۹

درس کتب و کلانی

دم شق آنا اندک۔

قواعد املاء

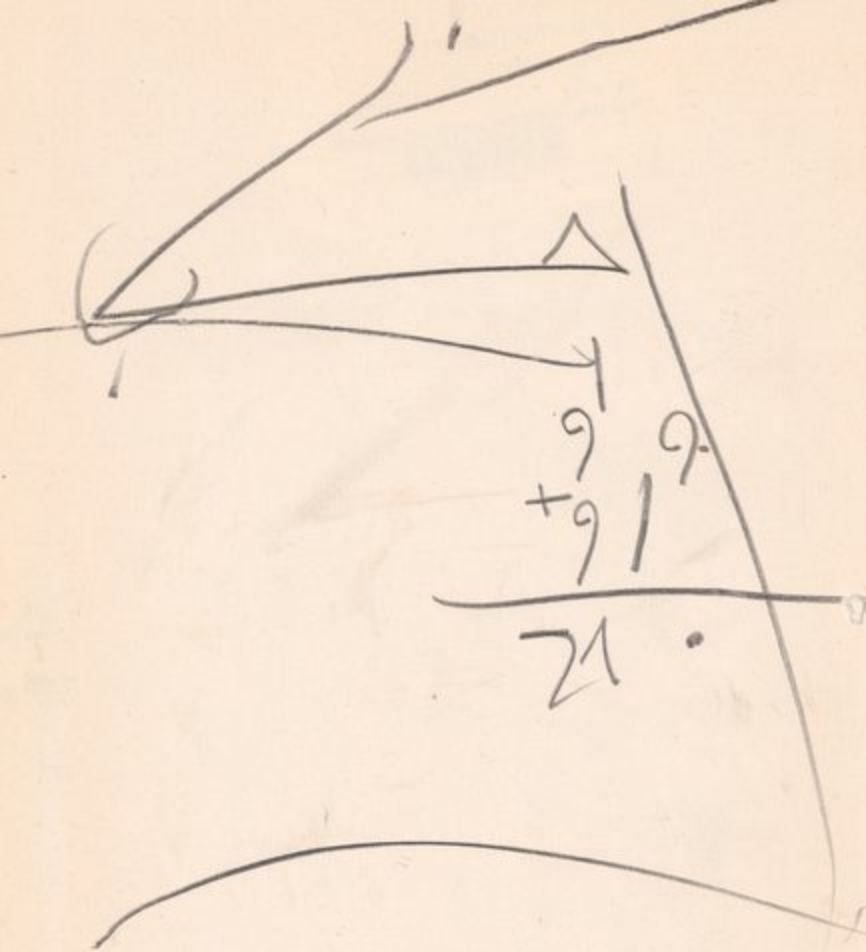
9 9
+ 9 1
21 .

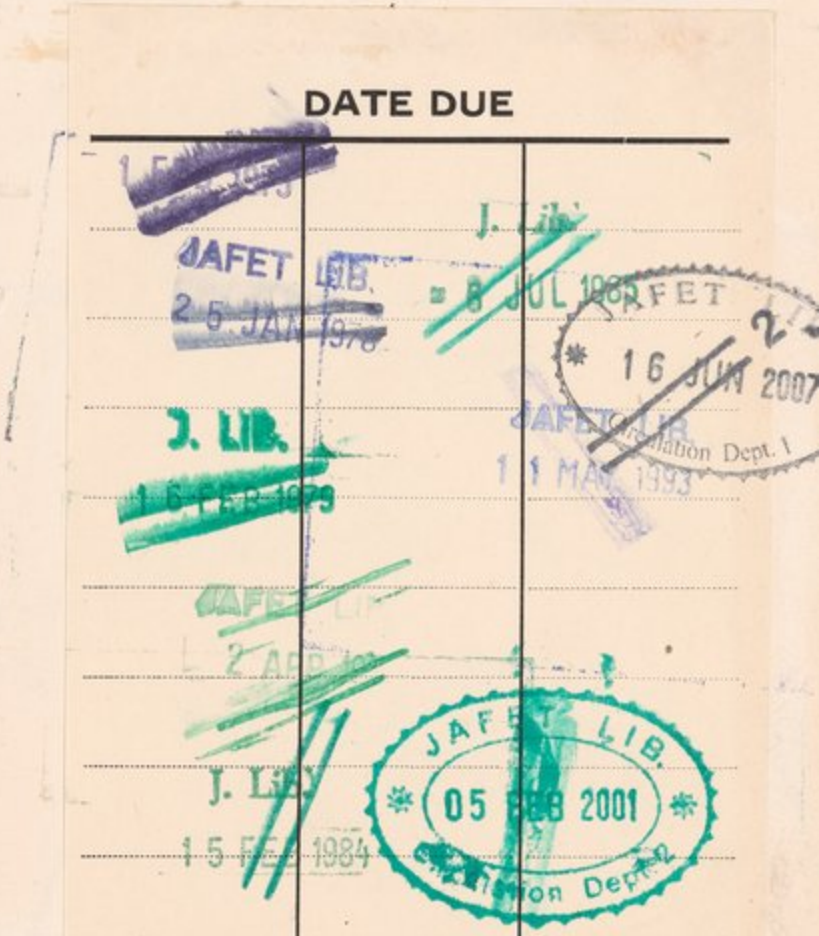
DATE DUE
JAFET LIB.
2 5 JAN 1978
J. LIB.
JAFET
16 JUN 2007
JAFET LIB.
11 MAR 1993
JAFET LIB.
05 2001

892.7 :A158YsuA:c.1
سلطان، جميل
ابو تمام
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039422

892.7
A158YsuA

992.71
A158Ysuà